

# مقدمة

سورة يوسف

اشتهرت سورة يوسف من اسمها بحكاية قصة نبي الله يوسف وكيف أنه ابتلي منذ الصغر بما كاد به أخوته عليه، إذ تآمروا عليه وأرادوا قتله، ولكن كبيرهم أرشدهم إلى أخف الضررين بإلقائه في البئر، ثم ابتلى بالأسر في الرق وظل على ذلك حتى شب وبلغ أشده فابتلى بامرأة العزيز، وقاوم شهوته، ونجاه الله منها، ثم ابتلى بالسجن وابتلى بالمكوث في السجن بضع سنين، حتى فرج الله عنه همه وبوأه ملك مصر وحافظ على الأمانة وتجاوز محنة الجدب حتى عم الرخاء في البلاد، فسبحان الذي مكنه في بلد ليس له فيها أهل ولا عزوة، وسبحان الذي جعل المملوك مالكا، والمسجون ساجنا، ثم اختتم أمنيته بأن يتوفاه الله مسلما ويلحقه بالصالحين، وهذه القصة لو أردنا حكايتها من جهة أخرى وهي أبيه يعقوب لقلنا أن يعقوب عليه السلام فسر الرؤيا التي رآها ابنه يوسف وعلم أنه سوف يبتلى وأنه سوف ينتصر بإذن الله، فلما فقد ابنه بمؤامرة أبنائه على أخيهم صبر ولم يجزع، ولو أنه علم بما ابتلى به ابنه لاشتد عليه الحزن والهم والغم، فلو كان يعلم أنه في البئر لساوره القلق والخوف عليه، ولو علم أنه وقع في الأسر والرق لأحس بالمهانة والذلة وازداد قلقه، ولو علم أنه ابتلى بامرأة العزيز لما تمكن من النوم، ولو علم أنه سجن لانفطر قلبه عليه حزنا، ولو علم أنه ظل في السجن بضع سنين لما ذاق حلاوة الطعام ولما قدر أن يبتسم يوما، ولكن الله تعالى لم يعلمه كل ذلك لطفا منه ورحمة، بل بشره بأنه سوف يعود إليه، ولأجل ذلك لا يزال يذكره مستبشرا حتى علم بفقد ابنه الآخر بنيامين ففقد بصره حيث اجمعت مصيبته بيوسف بمصيبته ببنيامين فلم يقدر على أن يتحمل وقد بلغ من السن ما وهن به العظم واشتعل به الرأس شيبا، لكنه لم ييأس من رحمة الله بل ظل على حاله من الأمل فيه، فسبحان الذي بلطفه قضى قضاءا خير من قضاء، فقضاؤه كله خير، فاجتمع الأب بابنيه يوسف وبنيامين وارتد إليه بصره، وأجلس أبويه على العرش تكريما لهما، ورغم ذلك كله فقد صفح يوسف عن أخوته، ولم يثرب عليهم، فكان ذلك مثالا يحتذى به في التسامح والقوة النفسية على ذلك، ولعل ما مر به من يوسف من محن كان لأجل تربيته على تلك القدرة النفسية الإيجابية على التسامح والعفو والصفح، وعدم الانتقام للنفس، فلا ينتقم إلا لله، وهذا ما حدا بأخوته أن يعلنوا توبتهم ويستغفروا من ذنوبهم، لما فهموا معنى استسلام الجوارح لقضاء الله وقدره من أبيهم يعقوب وأخيهم يوسف عليهما السلام.

قال تعالى (الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (1) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (2) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآَنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (3)

تضمنت المقدمة إشارة إلى كتاب الله ووصفه بأنه مبين، وأنه مكتوب باللغة العربية لأنها غزيرة المعاني والدلالات فكانت ألفاظه القليلة تحمل معاني كثيرة، ومن ذلك قصة يوسف، فهي قصة قصيرة يمكن حكايتها في عدة سطور معدودة، لكن قصص القرآن يتضمن دروس وعبر تفوق عدد هذه السطور، وهذه الدروس يغفل عنها كثير من الناس، ووسيلة تذكيرهم بها القصص، فالقصص وسيلة من وسائل عدة للتعليم والتربية، بيد أنها في هذا المضمار تكاد تكون الوسيلة الوحيدة لإيصال هذه المعاني في قلوب العباد على وجه الخصوص، ولولا حكاية القرآن لها لظلت الاستفادة منها غائبة عن الناس، ولا يزالون غافلين عن الحكم المستفادة من كل مشهد من مشاهدها، فمن العلوم من يتعلمه المرء بالقراءة والدراسة، ومنه من يتعلمه بالتجربة، ومنه من يتعلمه بالمشاهدة، وتلك الحكم التي في الصورة لابد وأن يتلقاها المرء بأسلوب القصص، قالوا في قوله (أحسن القصص) ذلك (لاشتمالها على حاسد ومحسود وعاشق ومعشوق ومالك ومملوك وشاهد ومشهود وحابس ومحبوس وخصب وجدب وحزن وفرح وفقر وغنى ومنام ويقظة) [[1]](#footnote-1)، وقال ابن جزي (الضمير في "قبله" للقصص أي (من الغافلين) (عن معرفتها)[[2]](#footnote-2)، قال ابن عطاء: ما سمع سورة يوسف محزون إلا استروح إليها[[3]](#footnote-3).

الجزء الأول

# علاقة يوسف بأبيه وأخوته

وفيه مشهدان: الأول علاقته بأبيه وتفسير أبيه لرؤيا ابنه، والثاني مؤامرة أخوة يوسف عليه لغيرتهم منه، ومحاولة الأب إبعاد ابنه عن صحبته، وإصرار الأخوة على أبيهم أن يترك لهم يوسف ونجاهم في ذلك، وتنفيذهم للمؤامرة التي دبروها معا.

المشهد الأول

# تفسير يعقوب لرؤية يوسف في المنام

قال تعالى (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (5) وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (6)

قوله (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ) مشهد يبين العلاقة الدفيئة بين يوسف وأبيه، وهو يحكي له ما رآه في منامه، بما يظهر ثقة الابن في أبيه، لاسيما عندما يهمه أمر أو يشغله شيء ولا يفهم كنهه، وطالما يحكي الابن لأبيه كل ما يحدث له في حياته، وطالما يسعد الاثنان بذلك، وهي ذات العلاقة المفترضة بين البنت وأبيها والبنت وأمها، فالعلاقة لابد وأن تكون ذات دلالة على حب متبادل وثقة في الرأي بينهما.

والابن حتى يظهر هذه الثقة في أبيه ويشرع في الحوار معه لابد وأن يقدم الأب لابنه دعائم هذه الثقة، وهذا الأمر لن يأتي من يوم وليلة، وإنما لابد من سنوات من التعايش واللعب والمرح والحنان بينهما، فعن يعلى بن مرة أنه قال: خرجنا مع النبي ودعينا إلى طعام فإذا حسين يلعب في الطريق فأسرع النبي أمام القوم ثم بسط يديه فجعل الغلام يفر ها هنا وههنا ويضاحكه النبي حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى في رأسه ثم أعتنقه ثم قال النبي حسين منى وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا الحسين سبط من الأسباط)[[4]](#footnote-4)، وعن عبد الله قال: كان رسول الله يصلي فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فإذا منعوهما أشار إليهم أن دعوهما فلما قضى الصلاة وضعهما في حجره فقال: من أحبني فليحب هذين)[[5]](#footnote-5).

أما إذا انعدم الحوار في الأسرة فإن ذلك ناقوس خطر يدل على اقتراب التفكك الأسري، وبالتالي تعذر التربية والإصلاح فيما بعد، وذلك نتيجة لسوء التعامل مع الطفل لسنوات، فتكون النتيجة كذلك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَبْصَرَ النَّبِيَّ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ فَقَالَ إِنَّ لِي عَشْرَةً مِنْ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّهُ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ)[[6]](#footnote-6).

والمشهد لم يبين لنا لماذا لم يحك يوسف ما رآه في المنام لأمه، وحكاه لأبيه، ولعل ذلك لأنه يعلم أن أبيه نبي وتفسيره للحلم رسالة من الله، وقد وصاه أبوه بالكتمان، ولا يؤمن أن تكتم النساء السر، وقد فشته زوجة النبي محمد ، قال تعالى (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ)، فكانت الحكمة في أن يظل السر بين الابن وأبيه وحسب.

وقوله (إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) فيه تكرر لفظ (رأيت) بما يدل على الانفعال أثناء الحكاية، وقد اطمأن وهو يقص الرؤيا على أبيه، ومتلهفا لمعرفة الجواب، لعلمه أن هذا الجواب وحي، فعن عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يَقُولُ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ ثُمَّ قَرَأَ (إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)[[7]](#footnote-7)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: رؤيا الأنبياء وحي [[8]](#footnote-8)، وعَنْ النَّبِيِّ قَالَ (الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ مِنْ اللَّهِ وَالْحُلْمُ مِنْ الشَّيْطَانِ)[[9]](#footnote-9)، قال الشنقيطي لم يبين هنا تأويل هذه الرؤيا، ولكنه بينه في هذه السورة الكريمة في قوله (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً) [يوسف/99- 100]،ومن المعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي، (فتأولها يعقوب أن اخوة يوسف وكانوا أحد عشر رجلا وأبويه سيسجدون له فيكيدوا لك كيدا أي يحسدونك)[[10]](#footnote-10).

وتأويل الأحلام من علامات الأنبياء والصالحين من بعدهم، لقوله (الرُّؤْيَا مُعَلَّقَةٌ بِرِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بِهَا صَاحِبُهَا فَإِذَا حَدَّثَ بِهَا وَقَعَتْ وَلَا تُحَدِّثُوا بِهَا إِلَّا عَالِمًا أَوْ نَاصِحًا أَوْ لَبِيبًا وَالرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ)[[11]](#footnote-11)، وفي رواية قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ قَالَ وَأَحْسِبُهُ قَالَ وَلَا تَقُصَّهَا إِلَّا عَلَى وَادٍّ أَوْ ذِي رَأْيٍ)[[12]](#footnote-12).

ووصف الأبوان في الرؤيا بالشمس والقمر كناية على فضلهما العظيم على الأولاد، وقد ضرب لنا رسول الله مثالا بفضل القمر فقال (وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِب)[[13]](#footnote-13)، ولا شك أن فضل الشمس على سائر الكواكب أعظم، ولولاهما –الشمس والقمر- لانفرط عقد تلك الكواكب ولخرجت عن مسارها وتخبطت في بعضها البعض، وهكذا تقوم الحياة الاجتماعية على الأسرة المكونة من الأبوين الأب والأم، وكلاهما يرعيان البيت، يقول النبي (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا)[[14]](#footnote-14)

قوله (قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ) (5) يبين حرص يعقوب على كتمان هذه الرؤية، ولعل سبب ذلك خوفه من أن يصيب ابنه الحسد، روي عن رسول الله أنه قال(استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود)[[15]](#footnote-15)، قال النووي (فاكتموا النعمة عن الحاسد إشفاقا عليه وعليكم منه ولا ينافيه الأمر بالتحدّث بالنعمة لأنه فيما بعد الحصول ولا أثر للحسد حينئذ)[[16]](#footnote-16).

والمقصود بالنعمة إما أن يكون راضيا، رضا منه بقضاء ربه، أو يكون قانعا سهل عليه تحمل الألم فيه؛ لأنه اختيار الله تعالى له، أو صابرا يتجرع غصصه رجاء ثواب الله تعالى، ومن كانت إحدى هذه الخصال فيه فإنه يقضي له حاجته، لأنها من خصال من لو أقسم على الله لأبره، بل يكون حاجته مقضية، لأن الراضي إنما يريد موافقة الله تعالى، وقد أصابها في رضاه، والقانع إنما يريد ما اختاره الله تعالى له، وقد أصاب ما اختار الله تعالى له في قناعته، والصابر إنما يريد ثواب الله تعالى، وقد أصابه في صبره، قال الله تعالى إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب. وكل هذه الأحوال نعمة من الله تعالى جليلة على عباده، وهم عليها محسودون من العدو والولي، أما العدو يريد زوالها عنه، فيكبته الله تعالى بإدامتها للمحسود، وأما الولي فإنه يتمناها لنفسه، كما قال النبي « لا حسد إلا في اثنتين » [[17]](#footnote-17).

وقوله (فإن كل ذي نعمة محسود) يعني إن أظهرتم حوائجكم للناس حسدوكم فعارضوكم في مرامكم وموضع الخبر الوارد في التحدث بالنعمة ما بعد وقوعها وأمن الحسد وأخذ منه أن على العقلاء إذا أرادوا التشاور في أمر إخفاء التحاور فيه ويجتهدوا في طي سرهم قال بعض الحكماء من كتم سره كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخيار عليه وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنع من بلوغ مأربه ولو كتمه كان من سطوته آمنا ومن عواقبه سالما وبنجاح حوئجه فائزا وقال بعضهم سرك من دمك فإذا تكلمت فقد أرقته وقال أنو شروان من حصن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات)[[18]](#footnote-18).

والحسد بين الأخوة ورد ذكره في قصة قابيل وهابيل، وقد تكرر هذا الأمر في قصة يوسف، والنبي نهى عن الحسد فقال (لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ)[[19]](#footnote-19)، بل إن النبي ذكر أن الأمة معصومة من أن يبتليها الله بعدو من خارجها لكنها ليست معصومة من التشاحن والتباغض والتحاسد بين أفرادها، قَالَ (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا)[[20]](#footnote-20)، وقال رسول الله « إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِى جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِى التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[[21]](#footnote-21)

قوله (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) الاجتباء بالنبوة، وتعليمه تأويل الأحاديث كناية عن تفسير الأحلام، وفهم عبارات الناس ليعلم الصادق منهم من الكاذب، فعَنْ النَّبِيِّ قَالَ (إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثًا وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنْ الشَّيْطَانِ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ)[[22]](#footnote-22)

قوله (وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آَلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (6) فهذه نعمة عظيمة لابد وأن يحظى بها كل النبي وكذلك أصحاب الدعوة، فلابد وأن يتميزوا بعلم التأويل للأحاديث، لأنهم يخاطبون قومهم بالإسلام، ويسمعون لهم، ولذلك قالوا (هو أذن)، فأجاب الله (قل هو أذن خير لكم)، لأنه بسماعه من قومه يدرك مشكلاتهم، وهمومهم، فيكون أقدر على علاجه من غيره، ولذلك قيل (اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ)[[23]](#footnote-23)، فعن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ قَالَتْ كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ )[[24]](#footnote-24).

المشهد الثاني

# مؤامرة أخوة يوسف عليه

قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آَيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ (7) إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (9) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (10) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (12) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (13) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ (14) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (15) وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (16) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (17) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (18)

قوله (لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آَيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ) (7) أي أن في هذه القصة إجابات كثيرة للسائلين عن علاج مشكلاتهم الاجتماعية والأسرية، قال ابن عطاء: ما سمع سورة يوسف محزون إلا استروح إليها، ففيها من العبر والعظات ما لا يمكن حصره، لكن الماوردي تمكن من إجمالها في أربعة أشياء أساسية (عاقبة الباغي الفشل – صدق الرؤيا ولو بعد زمن – ضبط النفس وقهر الشهوة – القيام بحق الأمانة – الفرج بعد شدة الإياس) [[25]](#footnote-25).

قوله (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (8) اتهموا أباهم بعدم العدل معهم، إذ مال حبه ليوسف عنهم، بالرغم من أنهم أحد عشر رجلا، ويوسف رجل واحد، فكان كفة قلبه تميل نحو يوسف، فغاروا من ذلك، وهذه الغيرة كثيرا ما نراها في الشركاء، كما غارت عائشة من زوجات النبي ، فإن الأخوة يشعرون بالغيرة بمجرد التفضيل القلبي لأحدهم عن غيره ولو لم يقترن ذلك بتفضيل مادي، وهو أمر يتعذر أن يحترز منه المحب، ذلك أن المحب لمن يحب مفضوح، ولا تملك العين أن تخفي نظرات الحب والميل له عن غيره، ولا يستطيع الوجه أن يبدي معالم غير الراحة والسكون من رؤيته، فكيف بهم وهم يرون النظرة لهم غير النظرة له، والبشاشة في وجهه غير البشاشة له، فهذا أمر يستحيل الاحتراز منه وإن اجتهد الأب في ذلك كثيرا، وهذا القول الذي وقع منهم ليدل على أنه لم يفاضل بينهم في العطية، بل هم متساوون في ذلك، ولم يعب أحد من أبنائه على أبيه ذلك، وإنما مجرد الميل القلبي ليوسف عنهم وحسب، فالمحبة من الأمور القلبية لا خيار فيها للإنسان، فليس له قدرة على التحكم فيها، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله يقسم لنسائه فيعدل ويقول: اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)[[26]](#footnote-26)، قال أبو الطيب أي من زيادة المحبة وميل القلب، والحديث يدل على أن المحبة، وميل القلب أمر غير مقدور للعبد بل هو من الله تعالى لا يملكه العبد([[27]](#footnote-27).

وقد اتهموا أباهم بهتانا وزورا بالضلال المبين، ولم يأتوا على ذلك بدليل غير الميل القلب، وهو كما ذكرنا لا غبار عليه طالما لم يتبعه تفضيل في العطية، فكان ذلك عقوق منهم لأبيهم بغير حق، فعَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا قَالَ لَا قَالَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ قَالَ فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ)[[28]](#footnote-28).

قوله (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ) (9) حملهم الحسد والغيرة على ارتكاب أشد الجرائم عدوانا على الإنسان، ألا وهي القتل، والنتيجة التي يرجونها من ذلك ليس إلا أن يحلوا محل يوسف في المحبة القلبية، فالحسد شره عظيم، ففي الحديث (العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر) [[29]](#footnote-29)، وأنى لهم ذلك، بل إنهم ظنوا أنهم بعد هذا الجرم قادرين على التوبة وإصلاح حالهم مع الله وتناسوا أن حقوق العباد لا يصفح عنها الله حتى يصفح العبد عن حقه، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ)[[30]](#footnote-30)، وفي الحديث القدسي يقول الرب يوم القيامة (أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار و عنده مظلمة حتى أقصه منه حتى اللطمة)[[31]](#footnote-31).

قوله (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ) (10) هنا يخرج صوت من الآثمين ممن منَّ الله عليه بضمير يفوق ضمير أخوته، ممن تعاظم عنده الشر الذي تآمر عليه أخوته، ولم يتقبل فكرة القتل عدوانا وظلما، فأشار عليهم بارتكاب جريمة بديلة، هي أخف ضررا مما يتآمرون عليه، وختم نصيحته لهم بقوله (إن كنتم فاعلين) أي أنهم لا يعزم عليهم فعل الجريمة الأصلية ولا الجريمة البديلة، ولكن إذا ما أصروا على هذا الجرم فليس خيار إلا أن يرتكبوا الأقل ضررا، بإلقاء يوسف في البئر، لعل أحد من المارة يأخذه له كعبد أو يبيعه كرقيق، فيتحقق لهم مقصدهم بأن يخلو وجه أبيهم لهم، وذلك هو كيد الحاسد ومكمن شره، بأن يزيل النعمة من المحسود، فيفرق بين الابن وأبيه، ويظنون أنهم بذلك يحظون على تلك المكانة التي كانت محتجزة لأخيهم المحسود

قوله (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) (11) هذا من باب الخداع والتضليل، ومحاولة منهم لأن يحملوا أباهم على أن يثق بهم، وهذا هو ما يتمناه كل أب، أن يعده ابنه فيثق فيه، ولذلك ورغم أن يعقوب عليه السلام كان يخشى كيد أخوة يوسف له، لكنه تأثر بهذه المحاولة، لاسيما وأنهم عابوا عليه حرصه الزائد على يوسف حتى أنه لا يأمنهم عليه، وأكدوا له حرصهم على مصلحته، فهم له ناصحون، أي فيما ينفعه ولا يضره، وهذا عين ما يبتغيه كل أب من أولاده، وهنا تحرك قلب الأب شيئا ما نحو هذا الخطاب فبدا منه أنه يتمنى ذلك

قوله (أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (12) ثم هم يأكدون على أبيهم أنهم يأملون اللعب والمرح مع أخيهم، وأنهم أهلا للحفاظ عليه، وهذا أيضا ما يتمناه الأب لولا أنه يعلم كيدهم، وغيرتهم منه.

قوله (قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ) (13) هنا قد غلب يعقوب عليه السلام الشك على الثقة، فاعتذر إليهم بأمرين، الأول أنه لا يستطيع أن يفارق يوسف لحبه له وفتنته به، ولم يستطع أن يكتم هذه المشاعر أمام أبنائه، والثاني أنه وضع عقبة مادية تمنعه من قبول دعوتهم، وهي خوفه أن يلتهمه الذئب في لحظة غفلتهم عن أخيهم وهو يلعبون، وفي ذلك إشارة على تفاوت السن فيما بينهم وأنه أصغرهم.

قوله (قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ) (14) هنا لم يلتفت الابناء لعذر أبيهم الاول، فهذا أمر لا يقبل المناقشة، فميل القلب طبع عليه وهو علي صرفه غير قادر، والثاني وهذا يمكن إزالته بالتأكيد على أبيهم أنهم من الكثرة بحيث يملكون القدرة على الحفاظ على يوسف من الذئب، وأنهم لو حصل ذلك وهو معهم فإنهم ليسوا أهلا لشيء، وهو الأمر الذي أحرج أباهم في ظل إلحاح أبنائه الأحد عشر على أخذ يوسف بدعوة الترويح عنه والمرح معه، فلم يعارضهم، ومضوا.

ولعل قولهم (ونحن عصبة) بعث على الاطمئنان شيئا ما إذ لو كان فيهم غيرة منهم أو حسد له، فإنه من العسير أن يجتمعوا معا على الشر ولا يوجد من يحملهم على الخير، فكأنه ظن أن الحسد الكامن فيهم متفرق بينهم، فإذا هم أحدهم بشر ليوسف نهاه غيرهم حياء أو الأقل منه شرا، ولم يظن أنهم قد يجتمعوا على مكيدة واحدة، وهو ما حصل.

قوله (فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ) (15) تستظهر الآية أنهم لما ذهبوا بيوسف كان يعقوب عليه السلام قد وثق في أبنائه، لكنها ثقة بلا ضمانات، وتلك هي إشكالية التعامل بين المسلمين، حيث إن الثقة لا تعني التخلي عن الضمانات، فالثقة في المسلمين مفترضة، لكن الضمانات هي وسائل موضوعية لتنفيذ أي اتفاق أو التزام، ذلك أن القلوب تتقلب بين عشية وضحاها، وليس المرء يملك نفسه أن يثبت على الحق في كل حين، فكما أن الرهن ضمان للدين عند السفر، والكتابة ضمان للدين عند الإقامة، فكذلك الحال لابد من ضمانات لأجل الوصاية أو الولاية على الصغير، فإن لم تكن ثمة ضمانات فلا، ولعل الضمانة التي ارتكن إليها يعقوب في السماح لهم بالذهاب به هو الرؤيا التي رآها يوسف، فاستيقن أن قضاء الله وقدره يسير فيما فيه خير ليوسف بإذن الله،وليس عليه غير أن يصبر على ذلك، فاحتسب وفوض أمره لله.

قوله (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) الوحي كان ليوسف رغم صغره في السن، وهو وحي من باب الإلهام، والربط على القلب، كي لا ينزعج مما يفعله أخوته به، فعَنْ قَتَادَةَ قَالَ"أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَحْيًا وَهُوَ فِي الْجُبِّ، فَهَوُّنَ ذَلِكَ الْوَحْي عَلَيْهِ مَا صُنِعَ بِهِ"[[32]](#footnote-32)، قال ابن كثير (أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطييبًا لقلبه، وتثبيتًا له: إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع)[[33]](#footnote-33)، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله « لما ألقي يوسف في الجب أتاه جبريل عليه السلام فقال له: يا غلام، من ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي، قال: ولم؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني،قال: تريد الخروج من ههنا؟ قال (ذاك إلى إله يعقوب)،قال:قل اللهم إني أسألك باسمك المخزون والمكنون، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والاكرام أن تغفر لي ذنبي وترحمني، وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وأن ترزقني من حيث أحتسب، ومن حيث لا أحتسب،فقالها، فجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب، فقال النبي ألظوا بهؤلاء الكلمات، فإنهن دعاء المصطفين الأخيار» [[34]](#footnote-34).

قوله (وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ) (16) هذه هي حبكة المتآمرين ودموع الكذابين وأدلة المزورين، حيث يتخذون من تهييج العاطفة مجالا للإثبات بدلا من أن يستندوا إلى أدلة تؤدي إلى تفتيح العقل وإشحاذ الذهن، واختاروا وقت العشاء وهو وقت دخول الظلام بالكلية، قال الثعلبي (ليكونوا أجرأ في الظلمة على الاعتذار وترويج ما مكروا، ليدلّسوا على أبيهم، وقد قيل: وإن الحياء في العينين، فلا يعتذر من ذنب في النهار فيتلجلج في الاعتذار فلا يقدر على إتمامه)[[35]](#footnote-35)، فقدومهم في وقت الظلمة لمنع أباهم من التفرس في وجوههم فينكشف كذبهم، وأوهموه ببكائهم تفجعهم عليه ليظن فيه إفراط محبتهم له فيمنعه عن الجرأة عليهم[[36]](#footnote-36)، قال الشعراوي (والبكاء انفعال طبيعي غريزي فطريّ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى، بأن يَفْرُك عينيه، أو يأتي ببعض ريقه ويُقرِّبه من عينيه، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء خافتاً؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء)[[37]](#footnote-37)، وفي الخبر: « إذا كَمُلَ نفاقُ المرء مَلَكَ عَيْنَه حتى يبكي ما شاء »[[38]](#footnote-38)، قال الشاعر: إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى.

قوله (قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) (17) نادوه باسم ( الأب ) المضاف إليهم ليرحمهم، فيترك غضبه عليهم، الداعي إلى تكذيبهم، وقصوا عليه قصة مزورة ليخيلوا إليه الموقف الذي وقعت فيه الحادثة، فالخيال يحث الإنسان على التصديق، وكلما حبكت القصة وكانت أقرب للواقع والمنطق كان تصديق العقل لها أقرب، لكنهم ولأنهم كذابون لا يثقون في روايتهم تلك، فيسيئون الظن في أبيهم أنه لن يصدقهم، ولو كانوا حقا صادقين، وهذا من باب الافتراء على يعقوب عليه السلام، والتشكيك في عدالته، وقدح فيه بعدم تمييزه بين الصدق والكذب، وهذا دوما دأب الكذابين بإلقاء التهمة على الآخرين، فالكذاب لكي يقنع الناس بصدقه يخيل إليهم ضعف ذاكرتهم، وقلة فراستهم، حتى لا يحملوا الواقعة وإن كان فيها شيئا من عدم المنطقية إلى أسباب أخرى تعزي إلى ما خيله لهم، والمعنى أنك غير مصدق لنا على كل حال قبل حدوث هذه الواقعة لظنك كراهتنا ليوسف ومحاولتنا الكيد به، فلعل ظنك هذا يحملك الآن بعد حصول هذه الواقعة على عدم التصديق لنا مرة أخرى.

بهذا القول قد نجحوا في أن ينحي يعقوب نفسه عن الفصل في القضية، وقد كان له رأي مسبق فيها، وهو معرفته كيدهم، فكيف به يفصل في القضية بعد حدوثها، قَالَ الْقَاسِمُ لَا يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يُمْضِيَ قَضَاءً بِعِلْمِهِ دُونَ عِلْمِ غَيْرِهِ مَعَ أَنَّ عِلْمَهُ أَكْثَرُ مِنْ شَهَادَةِ غَيْرِهِ وَلَكِنَّ فِيهِ تَعَرُّضًا لِتُهَمَةِ نَفْسِهِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ وَإِيقَاعًا لَهُمْ فِي الظُّنُونِ)[[39]](#footnote-39)، وجمهور العلماء أن القاضي لا يقضي بعلمه)[[40]](#footnote-40) وقال أبو بكر (لو وجدت رجلاً على حد ما أقمته عليه حتى يكون معي غيري)، وقال عكرمة: قال عمر لعبد الرحمن بن عوف (لو رأيت رجلاً على حد زنا أو سرقة وأنا أمير؟) فقال (شهادتك شهادة رجل من المسلمين) قال: (صدقت)[[41]](#footnote-41).

قوله (وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ) قال صاحب الظلال (لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة، فلو كانوا أهدأ أعصاباً ما فعلوها منذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم! ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى. كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلاً على التسرع، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس، وهم ينفونها، ويكادون يتهكمون بها. فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس! وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب.. فعلوا هذا )[[42]](#footnote-42).

قوله (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) (18) علم يعقوب كذب أبنائهم بقرينة مستمدة من الدليل المزور الذي قدمه أخوة يوسف لأبيهم، وهو ما ذكره القرآن (دم كذب)، فعلم يعقوب كذبهم إما من خلال رائحة الدم أو من خلال سلامة القميص، وعلى كل حال فإنه لم يقض بعلمه، ولم يعتد بتلك القرينة، فيعقوب لم يقض في القضية – رغم علمه كيدهم لأخيهم- لعلة، وهي أنه اتهمهم قبل حدوث الواقعة بقلة التدبير وعدم أخذ الحيطة، وبعد حصولها بقوله (سولت لكم أنفسكم أمرا)، ففقد الصلاحية لأن يقضي في القضية، ولذلك لم يقدر على معاقبتهم، فالقاضي لا يكون متهِما، وليس له أن يقضي بعلمه الشخصي، دون الارتكان للأدلة، حتى القرائن لا تكفي على ذلك، فالقرائن وإن كانت تعزز الأدلة، لكن لا تكفي مائة قرينة دون أن يتضافر معها دليل واحد، لكن يكفي دليل واحد، ولما لم يملك يعقوب عليه السلام من أمره شيء ومن الأدلة ما يؤكد ظنه، لم يجد غير الصبر الجميل 0

وقوله (فصبر جميل) منَّى نفسه بالصبر، لأنه ورد في الحديث (الصبر بالتصبر)، ووصفه بالجمال لأن الصبر إن لم يكن جميلا فليس بصبر، أي صبر بلا شكوى إلى الخلق[[43]](#footnote-43)، فيكون بثه إلى الله، كما في قوله (إِنَّمَا أَشْكُو بَثّى وَحُزْنِى إِلَى الله) [يوسف: 86]، وهو عند الصدمة الأولى بما يدل على الرضا بقضاء الله وقدره [[44]](#footnote-44)، فيسترجع عند المصيبة ويحمد الله، قال تعالى (الّذِينَ إذَا أَصَابَتهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إنّا للهِ وإنّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ)، قال رسول الله "إذا مات ولد العبد المؤمن قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم، قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم، قال: فما قال؟ قالوا: استرجع وحمدك، قال: أبنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد"[[45]](#footnote-45)، وقد تساءل الناس، بأي شيء يحصل التجمل بالصبر؟ قال التستري (بالمعرفة بأن الله تعالى معك)، ورب العزة يقول (إِنَّ الله مَعَ الصابرين) [البقرة: 153]، فإنما مثل الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل.

وقوله (وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ) والمقصود الاستعانة بالله تعالى على تحمل الصبر، قال رسول الله (وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ)[[46]](#footnote-46)، وهو من باب التسليم لقضاء الله والتوكل عليه في قضاء الحوائج، قال الشعراوي (طلب يعقوب عليه السلام العون فسوف يأتي مزيد من الأحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر في النفس، وتتطلب معونة الله)[[47]](#footnote-47)، فقوله (ولا تعجز) أي (عن الحرص والإستعانة فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يعطيك قوة على طاعته إذا استقمت على استعانته وقيل معناه لا تعجز عن العمل بما أمرت ولا تتركه مقتصرا على الإستعانة به فإن كمال الإيمان أن يجمع بينهما)[[48]](#footnote-48).

الفصل الثاني

# فرج الله بعد الشدة

قال تعالى (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (19) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (20) وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (21) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22)

قوله (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (19) هنا جاء الفرج حيث أرسل الله تعالى قافلة تسير في الصحراء ليرسلوا أحدهم فيتشبث يوسف في الدلو فينقذه ويخرجه من البئر، وذلك قبل أن يهلك من الجوع، فانفرجت محنة الغلام شيئا فشيئا، وخرج من البئر إلى السوق الرقيق، وبذلك أضحى في محنة أقل شدة من المحنة التي كان فيها، وإذا بهم يخفونه وقد أسروا به حتى لا يفتضح أمره فيأتي أهله ليأخذوه منهم، ولعل يوسف حكى لهم قصته فكتموها، وذلك لإضمار نية بيعه في سوق الرقيق، وهكذا يستبين أن المجتمع الذي كان يعيش فيه يوسف يحيط به الاستغلال والظلم والعدوان، ولذلك جاء تذييل الآية بقوله (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) أي: أن الله يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقَدرَ سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين)[[49]](#footnote-49)

قوله (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) (20) أي (جروا في زهدهم فيه على سنن أمثالهم البسطاء الذين لا يقدرون قدر نفائس الأمور)[[50]](#footnote-50)، فلو دفعت كنوز الدنيا كلها ما كانت بقدر يوسف عليه السلام، قال السيوطي (لم يعلموا بنبوّته ولا بمنزلته من الله ومكانه)[[51]](#footnote-51)، قال رسول الله (قَالَ رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)[[52]](#footnote-52)، وقال (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ)[[53]](#footnote-53)، لكن التسليم بقضاء الله حال دون أن يدعو من كان هذا حاله لنفسه بشيء من الدنيا.

قوله (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) تلك نية صالحة لمن اشتراه، أراد أن ينتفع بيوسف انتفاعا لا يضره بعد إكرامه والإحسان إليه، فإن جاز أن يتبناه فإن نيته كذلك، وهنا أبدله الله تعالى أسرة ترعاه بدلا من تلك التي كانت تكيد له، تكرم مثواه بدلا من أن تخطط لقتله، وهذا من فراسته أن يتخذه مثل ولده لما رآى فيه من العلم والحكمة، ولعل الذي اشتراه هو عزيز مصر باعتبار ما سيكون، فصار حال يوسف من الوقوع في البئر إلى المكوث في القصر، وهكذا يبدل الله حاله من أسوأ حال إلى أحسن حال.

قوله (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (21) ذكر الله أنه مكن يوسف بمجرد أن انتقل إلى بيئة غير بيته وأسرته، لمن يكرمون مثواه، وقبل أن يدرك ملك مصر، والمعنى أن الله وضع له القبول في الأرض، فجعل محبته بين الناس بمجرد رؤيته، فهذا هو معنى التمكين وحقيقته، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ قَالَ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ)[[54]](#footnote-54).

قوله (وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) فالتعليم في الصغر حتى يبلغ الأشد هو أهم شيء يسعى الأب لكي يقدمه لابنه، وخير العلم هو علم التأويل، أي (بترجيعها من ظواهرها إلى بواطنها)[[55]](#footnote-55)، جاء في لسان العرب (المراد بالتأْويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأَصلي إِلى ما يَحتاج إِلى دليل لولاه ما تُرِك ظاهرُ اللفظ)[[56]](#footnote-56)، قال ابن منظور (أَوَّلَ الكلامَ وتَأَوَّله دَبَّره وقدَّره، وأَوَّله وتَأَوَّله فَسَّره، وقوله عز وجل ولَمَّا يأْتهم تأْويلُه أَي لم يكن معهم علم تأْويله، وهذا دليل على أَن علم التأْويل ينبغي أَن ينظر فيه، وفي حديث ابن عباس اللهم فَقِّهه في الدين وعَلِّمه التَّأْويل، قال ابن الأَثير هو من آلَ الشيءُ يَؤُول إِلى كذا أَي رَجَع وصار إِليه)[[57]](#footnote-57).

قوله (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) فلم يقدر أخوة يوسف أن يبلغوا مرادهم في الكيد له، وإنما مكنه الله تعالى فزاد من محبة الناس له، وثقة الملك فيه حتى يضحى عزيزا لمصر، ولكن الناس لا يعلمون أمر الله وتدبيره، ولفظ (والله غالب) يوحي بأن القضية بين الله وهؤلاء المتآمرين، بمعنى أن الله تعالى جعل قضية الغلبة منسوبة إليه، والغالب هنا أولياء الله، ولكنهم لقربهم من الله ولمحبة الله لهم جعل الغلبة له سبحانه، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)[[58]](#footnote-58).

قوله (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (22) غاية يعقوب أن يصل ابنه لمرحلة الأشد، فيستغني عن حاجته لأبيه، وقد وصل يوسف تلك الغاية ولا يزال أبوه بعيدا عنه، ويجهل مكانه، لكنه عند أناس أكرموا مثواه، وعندما بلغ أشده آتاه الله حكما وعلما، قال مجاهد (يعني الفقه والعقل والعلم قبل النبوة)[[59]](#footnote-59)، قال الشعراوي (وفرْقٌ بين العلْم والحكم: العلم أن تُحقِّق وتعرف، أمَّا الحكم فسلوك وتطبيق لما تعلم، فالعلم تحقيق والحكم تطبيق)[[60]](#footnote-60).

الجزء الثالث

# يوسف وفتنة النساء

قال تعالى (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (25) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (26) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (27) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (28) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (29) وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (30) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (34) ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (35)

انتقل السياق من مشهد إلقاء يوسف في البئر والتقاته، وانتقاله لأسرة أكرمت مثواه حتى بلغ أشده إلى مشهد وجود يوسف في القصر وتراوده أحد فتياته، ودون أن تذكر الآيات كيف انتقل إلى القصر، ولعل ذلك يومئ إلى أن الذي اشتراه هو عزيز مصر وذلك قبل أن يصبح كذلك، ثم أصبح عزيزا لمصر

قوله (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (23) هو في بيتها لثقة زوجها فيه، فهي امرأة العزيز الذي أمرها أن تكرم مثواه، ولكنه بلغ أشده، ففتنت به، قال رسول الله (لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)[[61]](#footnote-61)، ما يعني أن الثقة لا تكفي ولابد من ضمانات، ومن هذه الضمانات منع الخلوة بين الرجال والنساء، لاسيما الخدم في البيت، وهي إشارة قرآنية إلى وجوب الانتباه لذلك وعدم التساهل في الآمر، ولقد جاءت هذه الإيماءة بطريق الإشارة لرفع الحرج عن الخدم، فالعيب على صاحب البيت، وقوله (وراودته) أي (طالبته برفق ولين في خداع يستر ما تريده ممن تريده، أي طالبته بلين ورفق في أسلوب يخدع ليتحرر مما هو فيه إلي ما تطلبه)، و(المراودة تقتضي تكرير المحاولة بصيغة المفاعلة، والمفاعلة مستعملة في التكرير)[[62]](#footnote-62)، ما يعني أنها لم تكن أول ولا آخر مرة تحاول مراودته فيأبى ويمتنع، لكنها هذه المرة كادت له، فغلقت الأبواب، أي أحكمت غلقها، فليس بإمكانه أن يفر منها ولا أن يتملص، فكانت المواجهة (هيت لك) أي تهيأت وتجهزت لك، وتلك الحالة التي فيها امرأة العزيز تسمى بسعار الشهوة، حيث انكسر حياءها وفضحت مكنونات صدرها، لدرجة الكيد والتدبير والإيقاع بيوسف وحصاره حتى أفصحت عن سرها له ورغبتها فيه بلا حياء، فما كان من يوسف إلا أن استعاذ بالله العلي العظيم، ثم اتبع هذه الاستعاذة بأدب الإكرام كيف يقابل بالخيانة، (إنه ربي أحسن مثواي)، أي كيف أخون من رباني وأحسن تربتي وإكرامي، ذلك أن الناس لا يرضون الزنا لأمهاتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم، فكيف يحصل منه ما لا يرضاه العزيز لأهله، ومن قبل لم يرض له غير الإكرام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قُلْتُ إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ)[[63]](#footnote-63)، فرد إليه الجميل بالامتناع عن أهله.

قوله (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)(24) الهم هو أول مراحل الفعل، والعقل حاجر للفعل، فإما أن يقبله فيمضي فيه، وإما أن يرفضه فيحجر على الأعضاء أن تفعله، قال رسول الله (­­وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)[[64]](#footnote-64)، و(الهم ترجيح قصد الفعل)[[65]](#footnote-65)، وقد يكون نتيجة الاستجابة الطبيعية للرد الفعل الغريزي، ذلك أن الإنسان يهم بالأكل عندما يشعر بالجوع، لكن إذا كان ثمة مانع من الأكل الصيام فإنه يمتنع عن الأكل رغم همه لعلمه أن ذلك لا يجوز، كذلك الهم بالشهوة هو استجابة طبيعية لمغرياتها، لكن الامتناع عن الفعل هو الذي يؤكد التقوى، وما الهم إلا دليل على أن يوسف عليه السلام كان إنسان طبيعي، له شهوة مثل سائر البشر، لكنه يمتنع عن صرفها في الحرام، يقول النبي (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا)[[66]](#footnote-66).

قوله (لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فكما ذكرنا أن الصائم يمتنع عن الأكل رغم جوعه لأمر الشارع له بالامتناع، فإن يوسف عليه السلام امتنع عن الاستجابة لمراودة امرأة العزيز له رغم أنه مثل سائر البشر يشعر بالجوع والحاجة للنوم، وإفضاء الشهوة، لكنه يمتنع عن ذلك لأمر ربه، وقد كنى سبحانه عن الأمر بالبرهان لوضوحه في النهي عن ذلك والزجر عن الوقوع في الفتنة، والمقصود بالأمر هنا ليس النهي عن الزنا، بل النهي عن مقدمات الزنا، بمعنى أنه التزم آداب الإسلام بغض البصر، ولو أنه نظر إليها وأعقب النظرة النظرة لازداد همه غما، ولكنه تأدب بذلك البرهان، فهو لم يراها بعينه، وإنما رأى أمر ربه، فامتنع عن أن يتبعها ببصره بداءة، فالنظرة بريد الزنا، قال أبو حيان والتقدير هنا (لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، فكان موجداً الهم على تقدير انتفاء رؤية البرهان، لكنه وجد رؤية البرهان فانتفي الهم)[[67]](#footnote-67)، ويجوز أن يكون المعنى (أن برهان ربه صرف عنه هذا الهم)، لأن الاستجابة الطبيعية وفوران الجسد لا ذنب عليه، فهو فعل الهرمونات، بما يدل على اعتدال الطبيعة البشرية فيه، قال ابن جزي(ولا يقدح هذا في عصمة الأنبياء لأن الهمّ بالذنب ليس بذنب ولا نقص عليه في ذلك)[[68]](#footnote-68)، بل إن هذا الأمر ليؤكد أنه مبتلى، وفهو إنسان طبيعي، ولو لم يستجب الجسد بشكل تلقائي لما ظهر الابتلاء في امتناع العقل أن يحجر عليه، والمقصود بالبرهان هنا (الأدلة المرجحة لجانب التقوى على جانب الشهوات)، وذلك لقوله (والصدقة برهان) أي برهان للإيمان بقبح الزنا، وجمال الطاعة، فعَنِ الأَوْزَاعِيِّ، قَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: قَالَ (رَأَى آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ نَهَتْهُ –مثلت له[[69]](#footnote-69)-، وَهُوَ الْبُرْهَانُ الَّذِي رَأَى" كقوله (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) (الإسراء/32)، فلولا أن لديه رصيد من الإيمان بالله تعالى كاف لردع نفسه عن فعل ذلك لاستمر في الهم، ولما هدأت نفسه واطمأنت بذكر ربه، ولكن الله تعالى هدأ طبيعته البشرية وسكنها بهذا الوازع الديني واستقر الإيمان في قلبه، وأما جمال الطاعة فهذا هو النصف الثاني من البرهان، ففي الأثر (النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه جل و عز إيمانا يجد حلاوته في قلبه)[[70]](#footnote-70)، ولذلك قال الشعراوي هو يعرف برهان ربه من البداية لكنه وجده في قلبه[[71]](#footnote-71) لحظة غض بصره وتزكية نفسه.

قوله (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ) المصروف هنا هو "الهم" يعني حديث النَّفس؛ قال العلماء (ذلك لأنَّ المرأة الفائقة في الحسن والجمال، إذا تزينت، ونهيّأت للرَّجل الشَّاب القوي، فلا بد أن يقع هناك بين الشهوة والحكمة، وبين النفس، والعقل محادثات، ومنازعات، فتارة تقوى داعيةُ الطبيعة والشهوة، وتارة تقوى داعية العقل والحكمة، والهمُّ عبارة عن محادثات الطبيعة ورؤية البرها عبارة عن جواذب العبودية)[[72]](#footnote-72).

قوله (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) مدحه الله تعالى على ذلك، حيث انصرف عن السوء والفحشاء بما رآه من دليل الإيمان بالله تعالى، وتلك هي بشريات المؤمن، حيث يتذكر دوما ما عند الله من الفضل والثواب العظيم فيسهل عليه الامتناع عما حرمه عليه، يقول النبي (لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[[73]](#footnote-73)، فقد أخلص قلبه لله، ولم يطلب شيئا غير ما عند الله في الآخرة، فكفاه الله شر الدنيا وما فيها، قال رسول الله (مَنْ كَانَ هَمُّهُ الْآخِرَةَ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ)[[74]](#footnote-74).

قوله (وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ) (25) لم يستسلم يوسف عليه السلام للمؤامرة التي أوقعته فيها امرأة العزيز، ولم يثق في نفسه، ووثق في الله تعالى، وعلم أن مراد الله منه أن يفر منها، فأسرع هاربا إلى الباب فتسابقا معا، هي يقصد الهروب منها، وهي تقصد اللحاق به، فلما حصل ذلك أمسك بطرف ثوبه فمزقته، وإذ هما على هذا الحال فوجئا بالعزيز زوجها لدي الباب، وهي لحظة حرجة لكلاهما، بل للعزيز نفسه، فليس أحد يحب أن يكون في هذا الموقف، وقد كان، فعَنْ الْمُغِيرَةِ قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ فَقَالَ النَّبِيُّ أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي)[[75]](#footnote-75).

قوله (قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الحكاية عن زوجة العزيز، بذكائها الشرير تداركت الموقف، وأظهرت براءتها من جديد وألصقت التهمة على يوسف، وتلاعب بمشاعر العزيز، واستغلت غيرته على أهله، بأن اتهمته هو بالتحرش بها، وإرادة السوء بها، ولكنها لحبها له ولحرصها على ألا ينتقم منه العزيز بالقتل اختارت عقوبتين دون الإعدام لتظل الفرصة سانحة للتقرب منه وهو في السجن.

قوله (قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي) يدافع يوسف عن نفسه ويذب عن نفسه التهمة التي ألحقتها به، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا يخشى غضبة العزيز عليه إن اتهم زوجته بفعل الفاحشة أو مراودتها له عن نفسه، لأنه يثق في الله ويعلم أن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، وليس عليه أن يستسلم، وليس عليه غير أن يدافع عن نفسه، من باب الأخذ بالأسباب، فهو لا يملك غير ذلك، ولذلك أيد الله له من يشهد له.

قوله (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (26) (وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (27) (فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) (28) جنَّد الله ليوسف عليه السلام شاهد من أهل امرأة العزيز يشهد عليها بالحق، حيث جاء بقرينة تبين الصادق منهما من الكاذب، والقرائن يمكن أن يرتكن إليها في الجنايات حيث تتشابك الوقائع ولابد من تخليصها بقرينة إما لصالح المتهم أو المجني عليه، وفي هذه الواقعة من العسير تمييز الاثنين عن بعضهما البعض، فقد يكون المتهم هو المجني عليه، وقد يكون المجني عليه هو الجاني، وهذا الذي حصل في تلك الواقعة، ولذلك جاءت القرينة لترجح بينهما، فكانت وبالرغم من أنها قرينة إلا أنها أضحت قاطعة في الإثبات، حيث لم يداخلها من الأدلة ما يفسد حجتها عليهما، فبما أنهما كانا يتسابقان على الباب وقد بدت هيأتهما على هذا الحال ما يعني أن أحدهما كان ممتنعا فارا بنفسه والآخر يلحقه، وليس ثمة شبهة تواطؤ بينهما، وعلى ذلك لابد من فعل ومقاومة، فإما ولابد وأن يكون الفعل من الجاني والمقاومة من المجني عليه، وطالما أن ثمة فعل ومقاومة لابد وأن يكون ثمة علامات على الملابس تدل على هذا الحال وكذلك الجسد لو استمرت المقاومة حينا، فبدا لهم أن تمزق الثوب كان من ظهر يوسف عليه السلام ما يعني أنه هو الفار وهي اللاحقة به، بذلك انغلقت القضية، لكن ليس بتبرئة يوسف، وإنما بعدم اتهامه بهذه الجريمة، قال الشنقيطي (يفهم من هذه الآية لزوم الحكم بالقرينة الواضحة الدالة على صدق أحد الخصمين، وكذب الآخر؛ لأن ذكر الله لهذه القصة في معرض تسليم الاستدلال بتلك القرينة على براءة يوسف يدل على أن الحكم بمثل ذلك حق وصواب) [[76]](#footnote-76).

ومن اللطيف أن يدور التحقيق على هذا النحو، بما يعني أن العزيز كان من فراسته أن يحقق الأمور ويسمع الشهود، ويصبر على بلوى امرأته ثم يقضي بالعدل ولا يبالي، (قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ) تحدث بصيغة الجمع، فقد اشتهرت هذه البلوى في معشر النساء، وقد روي عن رسول الله قال (وَلَوْلَا حَوَّاءُ لَمْ تَخُنَّ أُنْثَى زَوْجَهَا)[[77]](#footnote-77)قال المناوي (لانها ألجأت آدم الى الاكل من الشجرة مطاوعة لعدوه ابليس وذلك منها خيانة له)[[78]](#footnote-78)، أو ترك نصيحته في ذلك، قال الشعراوي (والكيد هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء، ويقوم به مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة، وكَيْد المرأة عظيم؛ لأن ضعفها أعظم)[[79]](#footnote-79)، واستعظم الكيد لتعلقه بالقلب ولشدة تأثيره في النفس [[80]](#footnote-80)، ولأنه ألطف في الحيلة والمكر والخداع، فيغلبن الرجال بذلك لميل الرجال إلى عاطفة المرأة، فينخدع بها.

قوله (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ) (29) والعزيز لم يعاقب زوجته على هذه الفعلة، وإنما احتوى الموقف، فأمر يوسف بالكتمان، وأمرها بالاستغفار من الذنب، وهو عين ما أمر به نبي الله محمد عائشة في حادثة الإفك لما حامت الشبهة حولها، فقال لها (أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَتْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً فَقُلْتُ لِأَبِي أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ عَنِّي فِيمَا قَالَ فَقَالَ أَبِي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ فَقُلْتُ لِأُمِّي أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا قَالَ قَالَتْ أُمِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ مِنْ الْقُرْآنِ كَثِيرًا إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ "فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ")[[81]](#footnote-81).

قوله (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (30) انتشار الخبر بين نساء المدينة وخرج من القصر رغم إيصاء العزيز يوسف بكتمانه ليدل على أن الأعين كانت تحيط بالعزيز دون أن يدري، ولا غرو في ذلك، فهو لم يكن قادرا على أن يحكم أهل بيته من الفتنة، فكيف يستطيع أن يحكم أسرار القصر من أن تبث في المدينة، في إشارة قرآنية إلى أن العيب وإن كان في المرأة – باعتبار ضعفها وقوة عاطفتها وقلة عقلها – فإن العيب كذلك فيمن يتولى رعايتها زوجا أو أبا أو أخا، فهو أقدر الناس على أن يغلق عليها أبواب الفتن، ولا يتركها لنفسها.

كما أن مراودة المرأة للرجل لم تختزل في قصة يوسف وامرأة العزيز وحسب، بل هي فتنة في كل زمان ومكان، يقول النبي (فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)[[82]](#footnote-82)، وعَنْ النَّبِيِّ قَالَ (مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ) [[83]](#footnote-83)، فلا تزال المرأة تراود الرجل عن نفسه حتى توقعه في الفاحشة، يقول النبي سبعة (يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وذكر منهم (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أعوذ بالله رب العالمين)، قال ابن القيم (وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر، أحدها قولهن امرأة العزيز تراود فتاها ولم يسموها باسمها بل ذكروها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها، الثاني أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها، الثالث أن الذي تراوده مملوك لا حر وذلك أبلغ في القبح، الرابع أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد – حيث يتكرر الفعل كثيرا لو وافقها على ذلك -، الخامس أنها هي المراودة الطالبة، السادس أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها، السابع أن في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة وهو الممتنع عفافا وكرما وحياء وهذا غاية الذم لها، الثامن أنهن أتين بفعل المرادودة بصيغة المستقبل الدالة على الإستمرار والوقوع حالا واستقبالا وأن هذا شأنها، وهذا شأنه وعادته، التاسع قولهن إنا لنراها في ضلال مبين أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الإستقباح فنسبن الإستقباح إليها، فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلا على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تساعد عليه ولا يحسن معاونتها عليه) [[84]](#footnote-84).

قوله (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (31) هذه الآية تصف كيد النساء للنساء، ومكرهن بعضهن ببعض، فلا يفل الحديد إلا الحديد، ولا يغلب المرأة إلا المرأة، وقد علمت امرأة العزيز ما دار من الحديث بين النساء عنها،وما لحقها من ذم منهن، فأعدت حيلة ماكرة، وأرادت أن يخرج عليهن يوسف في هيئته –ما يدل على أنه لا يزال في خدمتها وطوعها- حتى يتطلعن له ويفتن به كما فتنت هي، وقد تأكدت فتنتهن عندما جرحن أيديهن وهن يقطعن الثمار المقدمة لهن إكراما لهن في ضيافتهن، فلم يشعرن بأنفسهن وهن ينظر للرجل حتى فعلن ذلك، ما يعني أن عقل المرأة يضيع عندما تتحرك شهوتها، وإن كان الرجل يحصل له ذلك كذلك، ولكنه في المرأة أغلب وأظهر، فهن نساء كن في البارحة يرفضن الفاحشة ويذمن من يهم بها، ثم هن الآن يهوين بقلوبهن لرجل واحد، فأين عقلهن عندئذ؟ وذلك لمجرد أن تطلعن فيه مرة واحدة، فالمرأة لفراغها ودلالها يستولى عليها سلطان الشهوة ويغمر تفكيرها ما لم يعارضها شاغل، فإذا انشغلت بشهوتها لم تنشغل بغيرها، وإذا انشغلت بغيرها لم تنشغل بشهوتها، يقول النبي (أعطي يوسف وأمه شطر الحسن)[[85]](#footnote-85)، فما ملكن أنفسهن لما رأينه، وكان حقا عليهن غض البصر حتى لا يفتن به ابتداء، لكن أخلاق القصور فوتت عليهن فعل ذلك.

قوله (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ) (32) كان من الممكن أن تقف امرأة العزيز عند ذلك، لاسيما وأن زوجها كان عاقلا لم يعاقبها على فعلتها حيث كان الأمور في طي الشروع دون أن تكتمل أركان الجريمة، وكان من الممكن أن يبعدها عنه، ولكنه ظل يعاملها معاملة حسنة، ولم يهجرها، وكان من الممكن أن يضيق عليها القصر ويمنعها من الخروج منه أو استقبال ضيوفها، وكان من الممكن أن يفصل بينها وبين خادمها، وليته فعل ذلك، لكنها وللآسف لم يستفد من هذه الظروف لإعلان توبتها حتى يتم تجديد الثقة فيها، وإنما ازداد شرها، فلم تستر على نفسها بل اعترفت بفعلتها أمامهن ليعذرنها – في ظنها - بعد أن أقامت الحجة عليهن لعلمها أنهن لسن بأحسن حال منها، وهي وإن أقرت بعفته وطهارته وأنه استعصم بالله، فإنها فضحت نفسها أمامهن وأباحت لهن بإصرارها على المعصية، وهنا ظهر خلل أمني كبير، حيث إن إنهيار المجتمع أخلاقيا يبدأ من هذا الخلل، وذلك عندما لا يحفظ كل راع رعيته من الفتنة، ويترك كل رجل امرأته – زوجة أو بنتا أو اختا – تفعل ما تريد، وتخرج حينما تريد، وتقابل من تريد، وتتحدث مع من تريد، وبلا ضابط، ولا يعني ذلك أن الإسلام يقيد المرأة، ولكن المرأة لابد وأن تعيش في كنف الرجال، ليحوطها برعايته، لابد وأن تقر في بيتها،لابد وأن تلتزم آداب الحجاب ولا يكلمهن الرجال إلا من وراء حجاب، إذ لو لم يحصل ذلك، وإنما أطلق لها الرجل العنان لما قدرت -هي- على ضبط عاطفتها، فكلما تحركت النار فإنها تأكل كل ما حولها حتى يخمدها الماء، والمرأة إذا تحركت عاطفتها وتأججت لم يقدر على ضبط حدودها إلا الإطار الذي يرسمه الرجل لحركتها، فالنار تحيط بالرجل ليستمتع بدفئها أي عاطفتها لنفسه، فيستدفئ بها بالحلال، لكن إذا ما خرجت النار على السيطرة، فإنها تحرق بيته وأولاده وكل من حوله، وحينئذ تكون عاطفة المرأة نارا مدمرة ولا دفئ فيها ولا اطمئنان.

وقد أعلنت معصيتها بلا حياء، وأعلنت للملأ من النساء أنها تصر على المعصية، وأنها سوف تتخذ من أساليب الضغط والترهيب ما يحمله على فعل الفاحشة معها حتى إنها لتزج به في السجن ليكون أقرب على مطاوعتها، وفي ذلك دليل على أن النار المستعرة بها قد اشتعلت ولن تهدأ حتى تحرق كل شيء، فهي تُجنِّد كل سلطة لديها لتحصل على شهوتها منه، وجهرها بهذا السوء أمامهن ليدل على أنهن بعد أن كن ينكرن عليها ذلك أضحين كلهن يوافقنها على ذلك، حيث تأججت نار الشهوة فيهن كذلك، وأصبحن يطلبنه، فأين عقل المرأة وأين دينها؟ لقد غاب في ظل استعار شهوتها وأنانيتها وشغفها، وأضحى لا هم لها إلا السيطرة على الرجل، بل وسجنه حتى يكون لها وحدها، فهي لا تبالي بصغاره، وإنما تريد إشباع شهوة نفسها وحسب، تلك هي المرأة حين تستعر شهوتها، لا تريد إلا أن تلبي رغبتها، فتفعل كل شيء لتحصل عليه ولا تبالي بأحد، حتى وإن كان زوجها ومن أكرم مثواها.

والمتدبر في أحداث هذه القصة قد يعذر امرأة العزيز في أول الأمر حين يراها تكرم مثوى يوسف حتى بلغ أشده وازداد حسنا، لكن هذا هو ظاهر القصة، أما حقيقتها فإنها ظلت تراوده وتراوده حتى أغلقت الأبواب عليه وهيأت نفسها له، وازداد سعارها حتى أعلنت لنساء المدينة رغبتها فيه، فأين حياؤها حين أعلنت ذلك، وأين خشيتها من أن يفتضح أمرها من جديد أمام زوجها؟ وأين خشيتها من المجتمع؟ لقد خرجت الأمور عن السيطرة، فبعد أن كانت تراوده امرأة واحدة اجتمعن كلهن عليه، ليضحى هو الضحية لعدة جناة يصرون على الإيقاع به في براثن الشهوة المؤثمة.

قوله (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (33) أحيط بيوسف ليس من امرأة العزيز وحسب، بل منهن جميعا، ولم يجد ملاذا آمنا غير السجن، فدعا ربه أن يصرف عنه كيدهن، فليس عاصم منهن إلا الالتجاء إلى ربهن، قال شيخ يوما لتلميذه أرأيت لو أردت أن تقطع أرضا ثم نبح عليك كلب الماشية، ماذا كنت تصنع؟ قال أدافعه، قال فإن عاد؟ قال أدافعه، قال فإن عاد؟ قال أدافعه، قال يا بني ذلك يطول عليك، اطلب من الراعي صاحب الكلب أن يكف عند كلبه، هكذا فعل يوسف حينما تعرضن له النسوة كلهن، سأل الله تعالى أن يكفهن عنه، (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن)، فهو إنسان مثلهن له غرائزه الإنسانية، وطبيعته البشرية، ولا يمكنه أن يكف نفسه عن الاستجابة التلقائية للرغبة، لأنه إنسان طبيعي، ولكنه يقاومها، لما رآه من برهان على حلاوة هذه الطاعة وشؤم المعصية، لكنه الآن في حالة لا يرثى لها، فكل النساء يطاردنه، فما كان منه إلا أن أحب السجن ظنا منه أنه ملاذ آمن للبعد عنهن، فسأل ربه ذلك.

وهكذا لابد وأن يفكر المؤمن، وهكذا يعلمنا القرآن، فالعلاج من هذه الفتنة السجن، فإذا ما وجدت في نفسك ضعفا وقلة همة وعزيمة فاحبس نفسك عن الفتنة حتى لا تقع فيها، فإن كان في الحبس تفويت لمصالح كثيرة، فإنه في هذه الحالة – وفي هذه الحالة وحسب – خير كثير يتمثل في دفع الشر عنك، فدرأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة، هكذا فعل يوسف حين سأل ربه فاستجاب له، وأعطاه ما سأل، وإن عاب عليه بعض العلماء أنه سأل السجن، وكان من الممكن أن يسأل الله السلامة، ولا غرو إن كان السجن هو مكان السلامة، فليس في الإمكان أفضل مما كان.

قوله (فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (34) استجاب الله تعالى لدعاء يوسف عليه السلام، إذ كان من الممكن أن يكون السجن أيسر وسيلة لخلاء امرأة العزيز به، ولكن الله تعالى صرف عنه كيدهن، ولم تبين الآيات كيف حصل ذلك، المهم أنه حصل، وكان ذلك ببركة الدعاء وفضل الاستجابة، وكان ذلك بالانقطاع عن الدنيا بالكلية وتفضيل السجن عن احتمال الوقوع في المعصية أو العنت من مقاومتها، فإيثار السلامة خير من التخبط في الشبهات، ومقاومة الشهوات، قال

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ مُكَاتَبًا -مدينا- جَاءَهُ فَقَالَ إِنِّي قَدْ عَجَزْتُ عَنْ كِتَابَتِي –لم استطع الوفاء بديني-فَأَعِنِّي قَالَ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ صِيرٍ دَيْنًا أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ قَالَ قُلْ اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ)[[86]](#footnote-86)

قوله (ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآَيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ) (35) هنا اتخذ القوم سياسة احترازية لا عقابية، فيوسف ليس أهلا للعقاب، وقد ثبتت براءته أمام الجميع حتى باعتراف الجناة أنفسهن، لكن الشبهات لاتزال تحوم حوله، فقد حدثت الفتنة وكان هو سببها دون أن يقصد، فما كان من الرجال إلا أن رأوا أن سجنه أفضل من إطلاق سراحه حتى لا تعم البلوى، وتزيد الفتنة بين النساء به، لاسيما أن النساء بكيدهن ومكرهن استطعن أن يقلب الحقائق ويزيفوها إلى ما يردن، فأضحى عقل الرجال لا يصدق أن تفتن جميع النساء به إلا أن يكون هو سبب ذلك، ولذلك ظل في السجن حتى ثبتت براءته، وأضحت سمعته - باعتراف امرأة العزيز - ناصعة البياض، ولكن تأخر هذا إلى حين، أي إلى أن شاء الله، فظل يوسف في محنة أخرى ضمن محطات الابتلاء والاختبار التي مر بها، يقول النبي (إن أشد الناس بلاء الأنبياء)[[87]](#footnote-87)، وفي رواية (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[[88]](#footnote-88).

الجزء الرابع

# يوسف في السجن

قال تعالى (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآَخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42)

قوله (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ)(36) يدل نبي الله يوسف على أن أمضى فترة السجن أيا كان مسماها – تدبير احترازي أو عقوبة جنائية – مع فتيان، كلاهما تعرفا عليه والتمسا فيه الصلاح ووثقا فيه، وكانا يحكيان له ما رآياه في منامهما، وكانت هاتين الرؤيتين قد شغلتهما، فحدثاه بها، وتلك إشارة إلى أن الأنبياء لا يتوقف عملهم حتى عند سجنهم، فمجال الدعوة مستمر، وهو بما ملك من إيمان أشعر الفتيان في الثقة فيه، وهو الأمر الذي يمثل توطئة حسنة للحديث عن الله تعالى معهما.

(قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآَخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) هاتان الرؤييان بهما من الغموض ما يحول دون فهمهما لأول وهلة، لكن الظرف الذي رأياها فيه هو السجن، وكلتا الرؤيين تتحدثان عن عمل مستقبل خارج السجن، الأول هو عصر ما يؤول خمرا، والثاني الطير تأكل الخبز الذي يحمله فوق رأسه، وكلاهما متعذر حصوله داخل السجن، لكن الخمر يدل على الشر، وليس شر أشر ممن يصنع الخمر ويعصره، والخبز يدل على الخير، وليس خيرا ممن يطعم الطير دون أجر، ولكن يوسف عليه السلام أول هاتين الرؤيتين بخلاف ذلك، والذي يملك تأويل الأحلام يملك تفسير الأقوال، ومآلات الأحداث، وهو ما يسمى بالإلهام، عَنْ النَّبِيِّ قَالَ إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ)[[89]](#footnote-89)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ لَقَدْ كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ رِجَالٌ يُكَلَّمُونَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ أُمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ فَعُمَرُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ نَبِيٍّ وَلَا مُحَدَّثٍ)[[90]](#footnote-90)، قال بن وهب تفسير محدثون ملهمون [[91]](#footnote-91)، أي ملهم أو صادق الظن أو من يجري الصواب على لسانه بلا قصد أو تكلمه الملائكة بلا نبوة) [[92]](#footnote-92)، (والمُلْهَم هو الذي يُلْقَى في نفسِه الشيء فيُخْبِر بِه حَدْساً وفِراسة وهو نوع يَخْتَصُّ به اللّه عز وجل من يشاء من عباده الذين اصْطَفَى) [[93]](#footnote-93)، ( فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ الْإِلْهَام حَقّ وَأَنَّهُ وَحْي بَاطِن، وَإِنَّمَا حُرِمَهُ الْعَاصِي لِاسْتِيلَاءِ وَحْي الشَّيْطَان عَلَيْهِ، وَحُجَّة أَهْل السُّنَّة الْآيَات الدَّالَّة عَلَى اِعْتِبَار الْحُجَّة وَالْحَثّ عَلَى التَّفَكُّر فِي الْآيَات وَالِاعْتِبَار وَالنَّظَر فِي الْأَدِلَّة وَذَمّ الْأَمَانِيّ وَالْهَوَاجِس وَالظُّنُون وَهِيَ كَثِيرَة مَشْهُورَة، وَبِأَنَّ الْخَاطِر قَدْ يَكُون مِنْ اللَّه وَقَدْ يَكُون مِنْ الشَّيْطَان وَقَدْ يَكُون مِنْ النَّفْس، وَكُلّ شَيْء اِحْتَمَلَ أَنْ لَا يَكُون حَقًّا لَمْ يُوصَف بِأَنَّهُ حَقّ)[[94]](#footnote-94)

قوله (نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) عندما نرجع بالأحداث للوراء نجد أن يوسف لم يستطع أن يأول الرؤيا التي رآها وهو صغير، لكنه اليوم بعد أن بلغ أشده علمه الله من تأويل الأحاديث، وقد استشف الفتيان علمه بذلك، فسألاه أن ينبئهم بتأويل رؤياهما، وذلك لظنهما أنه من المحسنين أي لأنه (من المحسنين إلى أهل السجن، تداوي مريضهم، وتعزي حزينهم، وتوسع على فقيرهم، فأحسن إلينا بكشف غمتنا، إن كنت قادراً على ذلك) [[95]](#footnote-95)، وما فعلاه هي عين السنة، ذلك أن الرؤيا لا ينبغي أن يحدث بها الرائي إلا من يحب، فعَنْ النَّبِيِّ قَالَ (الرُّؤْيَا الْحَسَنَةُ مِنْ اللَّهِ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَلْيَتْفِلْ ثَلَاثًا وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ)[[96]](#footnote-96)، يقول الشعراوي بشأن الإحسان (وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان في ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم، فكل نفس تعرف السوء، وكل نفس تعرف الإحسان، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين في الكون، ونظروا إلى أيِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع، فاللص لا يسيئه أن يسرق أحداً، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض في أعماقه حين يتوجه السوء إليه، ويعرف حينئذ مقام الإحسان، ولكنه حين يمارس السرقة؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان، أي إذا انقلب السوء عليه ميزان الإحسان عنده سوف يعتدل) [[97]](#footnote-97).

قوله (قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي) (هذا من لطف مدخله إلى النفوس، وكياسته وتنقله في الحديث في رفق لطيف..)[[98]](#footnote-98) أن يدلل على أنه يعلم شيئا مما غاب عنهما من العلم، ليعلما أنه ذا فراسة وكياسة، وتلك من علامات النبوة، فالنبي أفرس الناس حتى يؤيد بالمعجزات، وقد نسب العلم إلى الله، لأنه هو الذي علمه، ويحصل ذلك ببركة الطاعة والتقوى، فمصدر علم الفراسة التقوى، ويكون بالتفكر في خلق الله، والتأمل في قدرته، ومن القرائن التي اعتمد عليها أن المسجون لا يتنظر غير الطعام، فهذا شاغله في السجن، وليس يأمل من الطعام إلا ما اعتاده، فإذا ما تغير الطعام يوما على غير العادة، فإن تغييره يصير عادة بعد ذلك، كأن يكون التغيير عادة مطردة مرة أو مرتين كل أسبوع، وهو بفراسته وعلمه يمازحهما بالحديث عن الطعام قبل أن يأتيهما فيصدق في ظنه مستعينا بحاسة الشم والحساب والتوقع، وقد نسب العلم إلى الله لأن المؤمن له فراسة ويرى بنور الله.

وقد استشهد بذلك ليؤكد لهما أنه لن يعبر رؤياهما إلا بمثل هذه الشواهد والقرائن، يقول الشعراوي أن يوسف عليه السلام زكى نفسه في هذا الموطن، لينسب الفضل إلى الله، وأن سبب اختصاص الله له هذا الفضل أنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله، وأقبل على الله متبعا ملة إبراهيم حنيفا، فذلك باب من أبواب الدعوة،وهو التحدث بالفضل أمام الناس امتثالا لقول الله تعالى (وأما بنعمة ربك فحدث)، قال الشعراوي (فهو زكى نفسه أمامهما لكي يأخذهما إلى جانب من زَكَّى، وهو الحق سبحانه وتعالى)[[99]](#footnote-99).

قوله (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (37) قال الجياني (والترك على ضربين أحدهما مفارقة ما يكون الإنسان فيه والآخر – وهو المقصود في السياق- ترك الشيء رغبة عنه من غير ملابسة له ولا دخول كان فيه)[[100]](#footnote-100)، وهذا سبب إرسال يوسف نبيا ليدعو هؤلاء القوم للإسلام والإيمان بالله واليوم الآخر، وقد بدأ بالتخلية قبل التحلية حتى يكون القلب نظيفا من الشرك والولاء لغير الله.

قوله (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (38) دلهما على الحق، وأنه ليس مبتدعا، وإنما سبقه إلى ملة الإسلام أنبياء ومنهم آباءه، فلم يكن في دينهم أي علامة من علامات الشرك بالله تعالى، فالشرك شئمه شديد، وينافي الإخلاص والتوحيد، وينتهي إلى إنكار النعمة وفضل الله على العباد، ومن ثم عدم الشكر وأداء الحقوق لأهلها، وحالهم شاهد على ذلك، فلو أن هؤلاء الناس الذين سجنوهم لم يشركوا بالله تعالى لما ظلموهم بالسجن بلا ذنب، ولكان أداء الحقوق لأهلها دين عليهم، ومن ثم تحريرهم من هذا الظلم.

قوله (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (39) بعد أن ذم الشرك، وحضهم على شكر المنعم بما يحملهم على توحيد الربوبية ذكرهم بتوحيد الألوهية، وأتى بشيء من مقتضياته وهو منطقية السيادة، فكما أن الملك لا يشاركه في ملكه أحد، فكذلك رب العالمين لا يشاركه في خلقه أحد، فكان هو أحرى بالتوحيد، وكانت ديانة القبط في سائر العصور التي حفظها التاريخ وشهدت بها الآثار ديانة شرك، أي تعدد الآلهة. وبالرغم على ما يحاوله بعض المؤرخين المصريين والإفرنج من إثبات اعتراف القبط بإله واحد وتأويلهم لهم تعدد الآلهة بأنها رموز للعناصر فإنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا إلا أن هذا الإله هو معطي التصرف للآلهة الأخرى. وذلك هو شأن سائر أديان الشرك، فإن الشرك ينشأ عن مثل ذلك الخيال فيصبح تعدد آلهة. والأمم الجاهلة تتخيل هذه الاعتقادات من تخيلات نظام ملوكها وسلاطينها وهو النظام الإقطاعي القديم)[[101]](#footnote-101).

قوله (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) بين لهم حقيقة الشرك، وأنه مجرد عادات مخترعة، وأسماء مبتكرة توارثها الأبناء عن الأباء لا تمت للحقيقة بصلة، وليس ثمة وحي أذن بها، أي عارية من المصدر والدليل لنسبتها إلى الله، قال ابن كثير ( ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم)[[102]](#footnote-102)، يقول أحد الأدباء الأنجليز (الرعاع أعتنقوا معتقداتهم بدون براهين، فكيف يمكنك أن تقنعهم بزيفها من خلال البراهين؟ إن الإقناع في سوق الرعاع لا يقوم إلا على نبرات الصوت وحركات الجسد، أما البراهين تثير نفورهم ) [[103]](#footnote-103)، هنا يوسف لم يحادثهم عن صنيع الله وقدرته في خلقه، وإنما حدثهم عن صحبته لهم، ليجعل هذه الصحبة دليلا على صدق ما يحدثهم به عن الله، ودليل على ضلال عبادتهم لغير الله.

قوله (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (40) اختصر بهذه العبارة شرح عقيدة توحيد الألوهية، قال صاحب الظلال (واضح من السياق أنه يعني هنا حكم الله القدري القهري الذي لا مفر منه ولا فكاك.. وهذا هو الإيمان بالقدر خيره وشره، وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار.. وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضى منهم واختيار. وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي.. وهذا كذلك لا يكون إلا لله. شأنه شأن حكمه القدري، باختلاف واحد: هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه.. ولكن الناس لا يكونون مسلمين حتى يختاروا حكم الله هذا وينفذوه فعلاً راضين..)[[104]](#footnote-104)، معنى ذلك أن كل حاكم على الأرض يقضي بحكم يخالف حكم الله قد ادعى لنفسه الألوهية، ولا يسوغ له الاعتذار بعد ذلك، فالذي يعرف الله يدين له بالحاكمية وحده سبحانه، ولا يخالفه في أمره، فإن حصل خلاف ذلك فالعمل بالسياسة التي أمر بها النبي أمر واجب (خِيَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمْ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ قَالُوا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ لَا مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ) [[105]](#footnote-105)

قوله (أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ) ذلك أن طاعة غير الله في معصيته شرك،قال النبي (لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ)[[106]](#footnote-106)، ويقول النبي « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ عَلَيْهِ وَلاَ طَاعَةَ »[[107]](#footnote-107)، وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ سَرِيَّةً وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَا جَمَعْتُمْ حَطَبًا وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا فَأَوْقَدُوا نَارًا فَلَمَّا هَمُّوا بِالدُّخُولِ فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ فِرَارًا مِنْ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَمَدَتْ النَّارُ وَسَكَنَ غَضَبُهُ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)[[108]](#footnote-108).

قوله (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) أي الدين الذي لا خداش فيه، قيمته عند أكثر الناس بخلاف قيمته عند الله الذي ارتضى لهم هذا الدين، ولو يعلمون قيمته ما فرطوا فيه، ولا تخلوا عن دينهم، ولم يخطئوا في حق إلههم بطاعة غيره، وفي معصيته، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ")[[109]](#footnote-109)، وآية جهل الناس حقيقة هذا الدين، وضلالهم عن كنهه، وعدم إدراكهم قيمته، أنهم يتخذون أربابا من دون الله تعالى يدينون لهم بالسمع والطاعة في معصية الله، ولا يبالون.

قوله (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآَخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (41) هو تأويل للرؤيين اللتين رأيناها، وجاء تاليا للمقدمة التي شرح فيها عقيدة التوحيد ونبوته، ثم أجابهما عن سؤالهما تعبير الرؤيين لهما، فذكر لهما تفسيرها كما هو واضح من السياق، فأوَّل الذي رأه نفسه يعصر خمرا بأنه سوف يفرج عنه من السجن ويتم تعيينه ساقيا للملك، وذلك لأن الظروف التي رأى فيها هذه الرؤيا تدل على أنه سوف يخرج من سجن الظالمين، ليسقيهم خمرا، فكان تأوليها على هذا النحو، أما الآخر فإنه سوف يخرج من سجن الظالمين، لكن ليس من المنطقي أن يخرج ليفعل خيرا إلا أن يفعلوا هم به شرا، فأولها بأنه سوف يعدم، وتأكل الطير من رأسه، كناية عن صلبه، (فالطير لا تأكل من رأس الحي على الصليب بل تجرؤ على ذلك بعد موته و تحلل جسده)[[110]](#footnote-110)، ولا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم [[111]](#footnote-111)، لكنه لم يسم هاتين الرؤيين بأسماء صاحبيهما تأدبا معهما رغم أن التأويل أبان من يفعل به منهما ما ذكره لهما، وكان صادقا معهما في تأويله ولم يخف عنهما شيء لكي يستعد من قضي عليه بالإعدام للموت، ويستعد الثاني لاستقبال حياته الجديدة بشيء من التوبة والاستغفار، ولم يبين في تأويله صاحب البشرى من غيرها، فالعبرة بالخواتيم.

واختتم تأوليه بقوله (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) ذلك أنه لا مفر من قضاء الله إلا بقدر الله، قال رسول الله (الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعْبَرْ فَإِذَا عُبِرَتْ وَقَعَتْ)[[112]](#footnote-112)، وقد أراد نبي الله يوسف أن يخفف عنهما بعضا من عاقبة هذا التأويل فاستخدم البشرى بأن الخير فيما اختاره الله لهما، ولا اعتراض على قضائه ولا فيما قدره، فلا صاحب الخمر يفرح ولا صاحب الخبز يحزن، فالعبرة بالخواتيم التي تؤهلهما إما إلى الجنة أو إلى النار، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا)[[113]](#footnote-113)، ذلك أن علم التأويل نوع من الإفتاء، وكأن المعبر يوقع إمضاء الله على إفتائه[[114]](#footnote-114).

قوله (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ) استغل يوسف الفرصة وأوصى من ظن – بتأويله – أنه سوف ينجو من السجن بأن يتحدث إلى الملك، ويتشفع له عنده، فهو يعلم براءته، وقد لا يعلم كيد امرأته به لما سجنته دون علم أو أمره صادر عنه، فإذا ذكره به أعانه على الخروج من السجن، ولا يضاد ذلك التوكل على الله، بل هو عين التوكل وحقيقته، لأن النبي أمر بالاستعانة بالله مع الحرص على ما ينفع، فقال (احرص على ما ينفع واستعن بالله ولا تعجز)، فكان فعله هذا هو الأخذ بالأسباب التي شرعها الله تعالى لحصول المراد، مع تفويض الأمر كله بالكلية لله تعالى، أما قوله (ظن) فإنه يدل على أن يوسف كان يعبر الرؤيا ليس من باب كونه نبي، وإنما ملهم، ولذلك فإن معبر الرؤيا يبني تعبيره على الظن القوي مستعينا بالشواهد والقرائن، وتلك فراسة يعطيها الله له، فالمعبر لا يعلم الغيب، ولكنه يصدق في حدثه وتوقعه بالإلهام من الله.

وعن ابن عباس عن النبي قال (ولولا الكلمة لما لبث في السجن حيث يبتغي الفرج من عند غير الله قوله "اذكرني عند ربك" [[115]](#footnote-115)، أي أنه عاب عليه الكلمة بهذا اللفظ، ولم يعب عليه مراده، فهو يبتغي الفرج من الله ولا شك، لأنه يعلم أن ذكره عند الملك ليس بكاف لأن يخرج من السجن إلا بإذن الله، لكنه ولأنه نبي كان الأولى له أن يبين تفصيل أمره لصاحبه حتى لا يظن خطأ أنه يستعين بالملك وليس بالله، فهو في مقام التعليم، ولذلك مكث في السجن، حتى لا يظن صاحبه أنه يبتغي الفرج من غير الله، فنسي ما قال، قال ابن تيمية (لَيْسَ فِي قَوْلِهِ "اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ" مَا يُنَاقِضُ التَّوَكُّلَ؛ بَلْ قَدْ قَالَ يُوسُفُ "إنِ الْحُكْمُ إلَّا لِلَّهِ" كَمَا أَنَّ قَوْلَ أَبِيهِ " لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ" لَمْ يُنَاقِضْ تَوَكُّلَهُ؛ بَلْ قَالَ (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إنِ الْحُكْمُ إلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ"، و" أَيْضًا " فَيُوسُفُ قَدْ شَهِدَ اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ وَالْمُخْلِصُ لَا يَكُونُ مُخْلِصًا مَعَ تَوَكُّلِهِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ شِرْكٌ وَيُوسُفُ لَمْ يَكُنْ مُشْرِكًا لَا فِي عِبَادَتِهِ وَلَا تَوَكُّلِهِ بَلْ قَدْ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ فِي فِعْلِ نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ "وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ" فَكَيْفَ لَا يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي أَفْعَالِ عِبَادِهِ. وَقَوْلُهُ "اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ" مِثْلُ قَوْلِهِ لِرَبِّهِ "اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" فَلَمَّا سَأَلَ الْوِلَايَةَ لِلْمَصْلَحَةِ الدِّينِيَّةِ لَمْ يَكُنْ هَذَا مُنَاقِضًا لِلتَّوَكُّلِ وَلَا هُوَ مِنْ سُؤَالِ الْإِمَارَةِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فَكَيْفَ يَكُونُ قَوْلُهُ لِلْفَتَى "اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ" مُنَاقِضًا لِلتَّوَكُّلِ وَلَيْسَ فِيهِ إلَّا مُجَرَّدُ إخْبَارِ الْمَلِكِ بِهِ؛ لِيَعْلَمَ حَالَهُ لِيَتَبَيَّنَ الْحَقُّ وَيُوسُفُ كَانَ مَنْ أَثْبَتِ النَّاسِ. وَلِهَذَا بَعْدَ أَنْ طُلِبَ "وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ" قَالَ "ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ" فَيُوسُفُ يَذْكُرُ رَبَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي تِلْكَ. وَيَقُولُ "ارْجِعْ إلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ" فَلَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ لَهُ "اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ" تَرْكٌ لِوَاجِبِ وَلَا فِعْلٌ لِمُحَرَّمِ حَتَّى يُعَاقِبَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِلُبْثِهِ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ وَكَانَ الْقَوْمُ قَدْ عَزَمُوا عَلَى حَبْسِهِ إلَى حِينِ قَبِلَ هَذَا ظُلْمًا لَهُ مَعَ عِلْمِهِمْ بِبَرَاءَتِهِ مِنْ الذَّنْبِ )[[116]](#footnote-116).

قوله (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ) (42) وهكذا يحول الشيطان بين أهل الحق والاتصال بالناس،ويحاول الحيلولة دون تمكينهم في الأرض، قال ابن كثير (كان هذا من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن)[[117]](#footnote-117)، ولكن الله تعالى يحبط كيده، قد يتأخر ذلك، فقد حالت الأسباب دون أن يخرج يوسف من السجن، فتأخر عن ملك مصر إلى وقت الله يعلمه، فلم يأذن الله له ذلك، فمكوثه في السجن بعض سنين لحكمة هو يعلمها، ولعل ذلك أدعى لأن يرتقي يوسف عليه السلام مراتب من الصبر التقوى لا تدرك إلا بذلك، يقول ابن تيمية (وَلُبْثُهُ فِي السَّجْنِ كَانَ كَرَامَةً مِنْ اللَّهِ فِي حَقِّهِ؛ لِيَتِمَّ بِذَلِكَ صَبْرُهُ وَتَقْوَاهُ فَإِنَّهُ بِالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى نَالَ مَا نَالَ؛ وَلِهَذَا قَالَ "أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" وَلَوْ لَمْ يَصْبِرْ وَيَتَّقِ بَلْ أَطَاعَهُمْ فِيمَا طَلَبُوا مِنْهُ جَزَعًا مِنْ السَّجْنِ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هَذَا الصَّبْرُ وَالتَّقْوَى وَفَاتَهُ الْأَفْضَلُ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ)[[118]](#footnote-118).

الجزء الخامس

# يوسف يعَبِّر رؤيا العزيز

قال تعالى (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ (44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)

قوله (وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ) (43) (44) ما رآه الملك أفزعه، والرؤيا على ثلاثة أنواع، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ فَرُؤْيَا حَقٌّ وَرُؤْيَا يُحَدِّثُ بِهَا الرَّجُلُ نَفْسَهُ وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنْ الشَّيْطَانِ فَمَنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ وَكَانَ يَقُولُ يُعْجِبُنِي الْقَيْدُ وَأَكْرَهُ الْغُلَّ الْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ وَكَانَ يَقُولُ مَنْ رَآنِي فَإِنِّي أَنَا هُوَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِي وَكَانَ يَقُولُ لَا تُقَصُّ الرُّؤْيَا إِلَّا عَلَى عَالِمٍ أَوْ نَاصِحٍ)[[119]](#footnote-119).

وما رآه الملك رؤيا حق، ما يعني أن الله أراد به وبقومه خيرا، فقد كان أكرم مثوى يوسف وهو صغير، وأخرجه من السجن لما علم به، وعينه وزيرا له لما وجد حكمته وعلمه وأمانته، ما يدل على عدله في ذلك، قال السعدي (من التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به)[[120]](#footnote-120)، قال أبو حفص (اعلم أنَّه تعالى عزَّ وجلَّ إذا أرادَ شيئاً، هيّأ أسبابه، ولما دنا فرجُ يوسف عليه الصلاة والسلام رأى ملكُ مصر في النوم سبع بقراتٍ سمانٍ خرجن من نهرٍ يابسٍ، ثم خرج عَقِيبَهُنَّ سبعُ بقراتٍ عجافٍ في غايةِ الهُزال، فابتلعتِ العجافُ السِّمان، ورأى سبعَ سُنبلاتٍ خُضرٍ، قد انعقد حبُّها، وسبعاً أخر يابساتٍ، قد استحصدت، فالتوتِ اليابساُ على الخضرِ حتَّى غلبْنَ عليها، فلم يبق من خضرتها شيءٌ) [[121]](#footnote-121)

والتعريف في ﴿ الْمَلِكُ ﴾ للعهد، أي ملك مصر. وسماه القرآن هنا ملكا ولم يسمه فرعون لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكا لمصر أيام حكمها "الهكسوس"، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين، أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرخو الإغريق بملوك الرعاة، أي البدو. وقد ملكوا بمصر من عام 1900 إلى عام 1525قبل ميلاد المسيح - عليه السلام -. وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة طيبة كما تقدم عند قوله تعالى (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ) [يوسف: 21] وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفا لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى. ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف - عليه السلام - كان في مدة العائلة السابعة عشرة، فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى - عليه السلام - بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي)[[122]](#footnote-122).

قوله (قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ) يدل على أن الفئة التي كانت تحيط بالملك هم أهل شورى وأمانة، لأنه لم يفتوه بما لا يعلمون، بل اعترفوا بجهلهم تأويل الأحلام، وذلك خير نصيحة له بدلا من أن يرتكن إليهم فيضل بهم، فإنه بحث عن غيرهم، فجاء الله بنصيحة يوسف له عن طريق ساقيه، ولو أنهم أفتوه بجهلهم لما حصلت المصلحة، وقد ذكرالإمام ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر) في فصل «من قال لا أدري فقد أفتى[[123]](#footnote-123)، ذلك لأنه يحمل من سأله على أن يسأل غيره من أهل العلم فيجيبه، فهو بامتناعه عن الفتيا دل صاحب الشأن على أهلها، وقال [عمر بن عبدالعزيز:](https://www.alukah.net/sharia/0/21572/) مَن قال لا أدري فقد أحرز نصفَ العلم، فعلَّق الجاحظ قائلًا: لأن الذي له على نفسه هذه القوة قد دلَّنا على جودة التثبُّت، وكثرةِ الطلب، وقوة الْمُنَّة[[124]](#footnote-124)، وقد رُوي عن مالك بن أنس: أن رجلًا سأله عن مسألة، فقال: لا أدري، فقال: سافرتُ البلدان إليك، فقال: ارجع إلى بلدِك، وقل: سألتُ مالكًا، فقال: لا أدري، وقال مالك من فقه العالم أن يقول لا أعلم فإنه عسى أن يتهيأ له الخير وقال سمعت بن هرمز يقول ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون ذلك أصلا في أيديهم يفزعون إليه، وقال الشعبي لا أدري نصف العلم، وقال ابن جبير ويل لمن يقول لما لا يعلم إني أعلم[[125]](#footnote-125).

قوله (وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ) (45) فالذاكرة إذا نسيت شيئا ما فإنها تتذكره بالأحداث المتشابهة والأحوال المتقاربة، وقد تذكر يوسف لأنه عالم بالتأويل، وملكه يحتاج للتأويل، فكان ذلك سبب تذكره له، وسبب نسيانه أنه كان منعزلا بالسجن عن الناس، فالذي يعزل نفسه عن الناس تقل ذاكرته وتضعف قدرته، والذي يعيش معهم ويتحمل آذاهم يتمتع بذاكرة أفضل وصحة أحسن، ولأنه مضى وقت في السجن فإن ذاكرته لم تكن تقوى على تحمل أمانة الرسالة التي حملها يوسف له، لكن إزاء فزع الملك من رؤياه تذكره.

قوله (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) (46) يدل على أمانة النقل لرؤيا الملك، فقد نقلها بحرفيتها، دون زيادة أو نقص، ويدل على حرصه على نصيحة الناس، وأنه سأل أهل الذكر لحمل لهم النصيحة منه، وهذا عمل مؤسسي قائم على الجهد الجماعي وحب التعاون والشعور بروح الجماعة، وهذا راجع لإدارة الملك، وحبه لمشاورة الناس من حوله، وعدم إغفال دور كل واحد منهم، فلم يهمل الساقي، ولم يسخر من طلبه للخدمة، بل سمح له وارسله لمقابلة يوسف في السجن كما طلب، وكان في ذلك نجاة لهم جميعا.

قوله (قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) (49) أجابه دون أن يطلب منه شيئا لنفسه وإنما نصحهم نصيحة اقتصادية لأزمة على وشك الوقوع بعد سبع سنوات، وليس أمامهم وقت للاستعداد لها إلا من الأن، وهكذا المسلم لابد وأن يتجرد في نصيحته حتى لو كان مرشدا لدولة رئيسها مشرك، فهو يعمل عملا إنسانيا بهذه النصيحة، ولا يريد أجره إلا من الله، يقول النبي (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ) [[126]](#footnote-126)، فالمسلم يعمل لله ولأجل الله، ولا ينتظر أجرا لنفسه، بل يقدم عمل الله على عمل نفسه أو جماعته أو حزبه - إن جاز التعبير -، بيد أن هذا الأمر عزمة وليس بواجب، لما في النفس من شيء، وشعور بالظلم، ورغبة في تبرئتها مما افتري عليها به، فعن ابن عباس: عن رسول الله قال (عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أرسل ليستفتى في الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج)[[127]](#footnote-127)، أي أنه قدم باب السياسة على باب الكرم والصفح جمعا بين الأمرين.

وكان مجمل نصيحته يتمثل -ابتداء- في التوصيف الصحيح للواقع الاقتصادي للدولة أن ثمة أزمة اقتصادية سوف تمر بها البلاد بعد سبع سنوات رخاء، وهذه الأزمة سوف تستمر سبع سنوات تحصد فيها كل الخير الذي عاشه الدولة في الرخاء سبع سنوات التي قبلها، ثم بعد ذلك يأتي عام يعتدل فيه ميزان الاقتصاد مرة أخرى، ويعم الرخاء، ويغاث الناس بعد أن كادوا يعدمون من الفقر وقلة الزاد، بل ويعصرون كناية على عودة الرخاء من جديد والرفاهية، وهو في ثنايا توصيف المشكلة وضع روشتة العلاج (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ)

والمشكلة الاقتصادية دوما تتمثل في مشكلة الندرة، والتي مفادها أن الموارد لا تكفي لإشباع الحاجات الإنسانية، الأمر الذي يستتبع إما زيادة تلك الموارد عن طريق الاستثمار أو تقليل الإقبال المتزايد علي تلك الحاجات عن طريق كبح الرغبة إليها وضغط النفقات، وثم يعد الاستثمار أهم الأدوات الاقتصادية لحل مشكلة الندرة، ويتحقق ذلك من خلال علاج اختلال التوازن بين هذه المصطلحات الاقتصادية (الدخل والاستهلاك والادخار)، حيث تنبني هذه العلاقة على فرضية مسلمة وهي أن (دخل الفرد أو الدولة يساوي مجموع كل من الاستهلاك والادخار)، والاستثمار هو ذلك الجزء المستقطع من الادخار باعتبار أن الأخير هو أهم محدداته، وعليه توجد ثلاث فرضيات، ويكون العلاج بحسب كل فرض منها، على النحو التالي:-

الفرض الأول: أن يكون مستوى الدخل أكبر من معدل الاستهلاك، وقد أشار القرآن إلى هذه الفرضية في قوله تعالى "سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ " فهي كناية عن الرخاء الاقتصادي و زيادة الدخل القومي عن معدل الاستهلاك، فعندئذ يحصل فائض في الدخل النقدي للفرد ليتصرف فيه – عادة - بإحدى طريقتين:-

الطريقة الأولى (الادخار) و له صورتان، إما ادخار تقليدي وهو حفظ هذا الفائض في محفظته أو خزينته الخاصة، وقد يكون هذا الادخار نابعا من رغبة الفرد ذاته، و هو ما يسمى بالاكتناز – ولا غبار بشأنه طالما أعطى الفرد حق الله تعالى المتمثل في الزكاة – وقد يكون بناء على توجيه من الدولة وهذه الطريقة ذكرت في القرآن كما في قول الله تعالى: " فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ"، وقد يكون الادخار كما في صورته الحديثة بإيداع الفائض المدخر في البنوك في صورة حساب توفير أو وديعة تحت الطلب، وهذه الصورة أيضا قد أشار إليها القرآن كما في قوله تعالى "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ"، الأمر الذي يبين ويؤكد أن على الدولة دور هام بشأن السياسات الائتمانية للأموال المودعة لدي البنوك.

أما الطريقة الثانية فهي البحث عن إحدى أوجه الاستثمار المناسبة لتوظيف تلك المدخرات بالطريقة التي تحقق عائدا معقولا يزيد من قيمة المدخرات وتعوض في نفس الوقت التضحية المحتملة بالكف عن إشباع رغبة آنية، ويقصد بذلك (الاستثمار)، ذلك أن الإسلام يحث على العمل واستثمار الموارد لتحقيق إنتاج أكبر وفقا لصورته المثلى، وقد أشار القرآن لهذه الحقيقة فيما قضى به نبي الله سليمان عليه السلام في قصة الغنم الذي تعدى على الزرع، والسياق هنا أشار إلى وجوب استمرار الانتاج الزرراعي لمدة سبع سنوات أملا في تلافي الفجوة الاقتصادية المحتملة بين الإنتاج والاستهلاك، والتركيز على ذلك لأن القوت من أجل إشباع حاجات ضرورية، وليس ثمة مجال للاستثمار أهم من ذلك، لاسيما والأزمة على وشك الحصول وليس ثمة متسع من الوقت لغير ذلك.

الفرض الثاني: حالة التوازن الآني نتيجة تساوي الدخل مع مقدار الاستهلاك، وهذا الفرض نظري ومؤقت، حيث لا توجد مشكلة اقتصادية في الوقت الراهن لكن قد تثور مستقبلا، فدوام الحال من المحال، لذلك يحتاج الفرد – لاسيما الدولة - أن يبحثا عن إيجاد مصادر أخرى للدخل لإشباع حاجات قد تجد مستقبلا أو لسد عجز قد يطرأ فيما بعد، وقد حدثت هذه المشكلة في مصر في عصر الدولة القبطية حينما تنبأ نبي الله يوسف بحصول عجز في محصول القمح سوف يطرأ ويمكث سبع سنين وهو محصول إستراتيجي، ما يؤكد أن تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية أمر حتمي حتى في أيام الرخاء، وذلك عملا على الحيلولة دون أن يطرأ عجز قد يجد مستقبلا، وإلا لما ساغ لنبي الله يوسف عليه السلام أن يضع خطة اقتصادية بشأن الزراعة تمتد لخمس عشرة سنة.

الفرض الثالث: أن يكون مستوى الدخل أقل من معدل الاستهلاك، وعندئذ يحدث عجز عن إشباع الحاجات في الوقت الراهن، وهنا يأتي دور علم الاقتصاد لعلاج هذه المشكلة، فيأتي بأحد حلين، حيث يتمثل الحل الأول في خفض حد الإشباع للسلعة أو الخدمة الاستهلاكية وذلك بضغط حجم الإنفاق عليها، فقوله (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ) نصيحة لتقليل حجم الاستهلاك، وزيادة حجم الادخار، وهو حل منطقي إذ كيف نعالج الفجوة بين الدخل والاستهلاك إلا بكبح الأخير ليتساوى مع مستوى الدخل، وهذا الوضع كانت تتبعه الدول كثيرا قبل عصر العولمة – من ذلك النموذج الروسي - فتقوم بوضع إجراءات ضبطية على السلع المستوردة وقيود جمركية وكمية، وغالبا ما يتحقق ضغط الإنفاق بطريقة أخرى بصورة آلية عن طريق رفع الأسعار، لكن هذا الحل هو حل مؤقت، إذ يشترط لنجاحه العمل في ذات الوقت على استثمار بعض عوامل الإنتاج المعطلة لتحقيق التوازن بين الأمرين في صورة تعطي شيئا من الرفاهية، وهو ما يسميه الاقتصاديون بنظام الدفعة القوية أو النمو المتوازن، وقد حدث ذلك في عهد رسول الله في عام المجاعة عندما قاطعته قريش، وقد تحاول الدولة ضغط حجم الإنفاق لتلافي هذه الإشكالية، إلا أنه مع اشتداد الأزمة تحتاج الحكومة لإنجاح هذه السياسة أن يكون شعبها مؤهلا لمزيد من ضغط حد الإشباع، الأمر الذي قد يضطرها في النهاية إلى اللجوء إلى حلول أخرى قد لا تتماشى مع سياسة الحكومة الاقتصادية وهو الأمر الذي يعني اللجوء إلى الحل الثاني.

والحل الثاني يتمثل في محاولة الاقتراض، وعندئذ يظهر دور وعمل البنوك في علاج هذه المشكلة، إذ لو قيل - مجازا - في هذا الفرض أن الضرورات تبرر بعض المحظورات، وبخاصة إذا كانت المجموعة الاستهلاكية ضرورية حيث لا يمكن الاستغناء عنها كالنفقات الصحية و العلاجية، إلا أن هذا الحل وإن كان يجدي في الحاضر فإنه يزيد المستقبل تعقيدا، حيث تتراكم الفوائد البنكية علي الدول المدينة أو المستثمرين والمستهلكين بصفة عامة فتزداد المشكلة سوءا في الحقيقة، وإن كانت تعالج بصورة صورية في الوقت الحاضر، لذا كان على الدولة قبل أن تلجأ لهذا الطريق أن تعي جيدا كيف تستثمر تلك الأموال التي سوف تقترضها لا أن تقترض لسداد عجز في الموازنة فحسب، و إلا وقعت في خطأ علمي سوف تتفاقم آثاره في المستقبل، والذي يجعلنا نتبع أو نخضع لأي من هذين الطريقين سياسة ولي الأمر التشريعية، الأمر الذي يظهر بجلاء دور الدولة التشريعي إزاء الاستثمار وتبني أيا من السياسات سالفة الذكر.

وعلي ذلك يمكن القول بأن دور الدولة إزاء الاستثمار يختلف بحسب المرحلة التي يمر بها شعبها، ففي فرض تحقيق الدولة لفائض في الناتج القومي فإنها تسعي للاستمرار في الإنتاج وتشجيع الاستثمار كما هو متبع في كثير من الدول المتقدمة وهو ما يسميه علم الاقتصاد بقانون (say) وتكون غاية الدولة من الاستثمار آنذاك تحسينية وليست حاجية، أما في الفرض الثاني والذي يتصور فيه حدوث عجز الدولة عن إشباع حاجات شعبها فإنها تلجأ للاستثمار وتحقيق معدل من الإنتاج لإشباع تلك الحاجات التي قد تكون ضرورية، وفي الفرض الأخير حيث يتعادل مستوى الإنفاق العام مع مستوى الإنتاج فإن الدولة تسعي للاستثمار وفقا لأهداف مغايرة قد تكون ضرورية أو حاجية أو تحسينية بحسب المصلحة التي قد تجد مستقبلا، يقول الدكتور على حافظ في هذا الصدد (القول بأن دور الدولة الاقتصادي في الدول النامية من حيث إنه لا يختلف عن دورها في الدول المتقدمة لا يحمل هذا القول أدنى نسبة من الصحة ذلك أن الدول المتقدمة قد اكتمل جهازها الإنتاجي واستغلت مواردها الإنتاجية العاطلة ومن ثم تتركز جهود الدولة الأساسية في كيفية تحقيق استقرار اقتصادي ومواجهة التقلبات الاقتصادية، وبالتالي فإن ما يصلح للبلاد المتقدمة من سياسات مالية ونقدية مثلا لا يصلح بالضرورة مع ظروف وأوضاع الدول النامية لاختلاف طبيعة المشاكل الاقتصادية في كل منها، فالتنمية الاقتصادية في البلاد النامية تتطلب حشد الطاقات الإنتاجية وتوفير الموارد المالية لتمويل مشاريع التنمية ولا يتم ذلك إلا من خلال اضطلاع الدولة بتلك المهام من خلال خطة مرسومة تتضمن دفعة قوية أو سلسلة من الدفعات من رؤوس الأموال المستثمرة ومن عملية الاستغلال للموارد المتاحة للمشروعات بهدف تحقيق معدلات نمو اقتصادية مرتفعة تسمح للدولة ببلوغ مرحلة النمو الذاتي ).

الجزء السادس

# من المحنة بالسجن إلى المنحة بالتمكين

قال تعالى (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (50) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (54) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (55) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (56) وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (57)

قوله (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ) (50) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لَأَجَبْتُهُ)[[128]](#footnote-128)، أي أنه لن يدخل في مثل هذه المحاورة التي أجراها يوسف حين استشهد بالنساء اللاتي قطعن أيديهن لما رأينه ليدلل على المؤامرة عليه منهن، ولعل ما أصاب يوسف من الحزن طوال سنوات كثيرة جعله قد ألف السجن، وبدا له أن إثبات براءته قد لاح له من جديد بتلك الدعوة، فأراد أن يثبت للعالم أجمع كيف كاد له النساء حتى مكث في السجن هذه المدة، لكن نبي الله محمد لم يشعر بمثل ما شعر به يوسف عليه السلام، فعن ابن عباس: عن رسول الله قال (عجبت لصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث أرسل ليستفتى في الرؤيا ولو كنت أنا لم أفعل حتى أخرج وعجبت لصبره وكرمه والله يغفر له أتي ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ولو كنت أنا لبادرت الباب)[[129]](#footnote-129) فكان رده مستندا على العقل والحكمة، فهو ليس في ذات الحالة النفسية التي مر بها نبي الله يوسف عليه السلام، ولم يقع عليه مثل الظلم الذي ألم به، فلم تؤثر العاطفة عليه، بينما تغلب عاطفة المظلوم أحاسيسه ومشاعره، وقد اعتاد وقوع الظلم عليه، فليس له أمل أن يرتفع عنه ظلم الخروج من السجن بقدر أمله أن ينكشف الافتراء الذي وقع عليه بهذه المكيدة، لاسيما وأنه قد ثبتت براءته من قبل ورغم ذلك ألقي في السجن، كما أنه لا أحد يعلم ما كدن له من جديد غير الله، قال أبو حيان (واستشهد بعلم الله على أنهن كدنه، وأنه بريء مما قذف به وأراد الوعيد لهن، وهو عليم بكيدهن فيجازيهن عليه)[[130]](#footnote-130)، هذا هو إحساس المظلوم وكدره الذي يغلب حكمه على الأمور بشكل صحيح وتبصره للمصلحة.

قوله (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ) هنا شرع الملك في تحقيق المسألة من جديد، والتحقيق هذه المرأة لم يقتصر على امرأة العزيز بل شمل النساء اللاتي وقعن في حبه وأردن مراودته لما اطلعن عليه فقطعن أيديهن، كما أن التحقيق ابتدأ بتوجيه اتهام صريح في حقهن جميعا، ودون تجمل في توجييه (مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ) أي ادفعن عن أنفسكن هذه التهمة، وهذا تغيير كبير في موقف يوسف من القضية، فبعد أن انغلقت صفحاتها استطاع يوسف بفضل الله تعالى أن يلتمس إعادة النظر فيها، وهذا أمر يصعب الشروع فيه بل وتحقيقه إلا إذا ظهرت أدلة جديدة أو ظهرت قرائن لم تكن موجودة أثناء التحقيق معه قبل ذلك، لكن الأمر، وكما ذكرنا لم يسر على هذا النحو، فقد كان سجنه من باب الاحتراز منه وليس عقوبة له، مخافة فتنة النساء به، ولذلك لما طلب التماسا في هذا الأمر، واستعان على ذلك بقرينة أنهن قطعن أيديهن، ويتعذر أن تقطع النساء جميعا أيديهن في وقت واحد إلا أن تكون حادثة هائلة، فأراد بهذه القرينة أن ينفتح باب التحقيق مرة أخرى بتهمة الكيد له، ففهم المحقق قصده أنهن راودنه، ولم يكن يوسف ليتهمهن بمراودتهن له دون إثبات،ولذلك أطلق لفظ (الكيد) بدلا من (المراودة) التزاما منه بآداب التقاضي ليمنع عن نفسه تهمة البلاغ الكاذب، والمحقق لابد وأن يأخذ بالشك، وليس باليقين، بخلاف القاضي الذي يبني حكمه على اليقين وليس الشك، فمرحلة التحقيق تسبق مرحلة المحاكمة، ولذلك كان من السائغ أن يوجه التهمة لهن بتلك الألفاظ (راودتن يوسف عن نفسه)، وبتوجيه التهمة لهن كفى شرهن، وضعف موقفهن، واندحر ظلمهن، فبعد أن كن لا يستحين أن يفعلن الفاحشة ويراودنه، زهلن من توجيه الاتهام لهن، وأنهن أصبحن متهمات بل أن كن آمرات لا يرد لهن طلب.

قوله (قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) (51) كان نتيجة توجيه التهمة لهن والتحقيق معهن بالغ الأثر في أن اهتزت ثقتهن في أنفسهن، والمرأة إذا اهتزت ثقتها في نفسها اعترفت بخطئها، لكن العجيب أنهن اعترفن بأخطائهن وظلمهن له دون إخفاء شيء من ذلك، وذلك ليئسهن منه، وفقهن أنه لن يستجب لرغبتهن الآثمة، فأعلن توبتهن، فحصلت هذه التوبة بعد أن أعيد تحقيق المسألة من جديد فعلمن أن ظلمهن لن يظل مستور إلى الأبد، بل لابد وأن يكشفه الله ولو بعد حين، فأردن أن يعترف بأنفسهن قبل أن تقوم القرائن عليهن كما ثبتت في حق امرأة العزيز من قبل، وقد علمن أنها خانت زوجها رغم حرص القصر على إخفاء ما حصل، ولعلمهن أن الله لم يهديها لإثبات افترائها عليه، فالله لا يهدي كيد الخائنين، ولابد وأن يضل سعيهن، ولابد وأن ينتصر الله للمظلوم، فالموقف الشجاع من يوسف عليه السلام كان له بالغ التأثير فيهن، فقوته في الصبر والحلم التي تحلى به جعل النساء يفخرن به حتى أنهن لم يستطعن أن يفترين عليه بعد ذلك أو يكدن له من جديد، وليس ذلك إلا انبهارا بأخلاقه الحسنة وبقوته في الصبر، وعزمه على إثبات براءته، بل إنهن حرقن أنفسهن لأجل إظهار براءته هو، ودون أن يكون همهن أنفسهن كما كان ذلك شأنهن قبل ذلك، لما قلن (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين).

قوله (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ) (52) وفي ذلك دليل على ضعف المرأة مهما كادت وتغطرست ووقعت في الهاوية فإنها لن تستطيع أن تظل سنين على هذا الحال من الكيد ولابد وأن تمل من ذلك، وتقر بخطئها طالما أن صاحب الحق متمسك بحقه إزاءها، فسيأتي يوما تعلن للجميع إثمها وبراءة من افترت عليه، وهي في هذا الموقف، وهي تتخلى عن كذبها وكيدها تفعل ذلك لعلمها أن كل السبل لإخفاء خطيئتها لم تفلح،وأنه مهما مر الزمان سوف يعود صاحب الحق ليدافع عن حقه، ساعتها يكون أفضل خيار لها أن تبين المسألة على أنها ذلة وقعت فيها، وليس ذلك منها عادة، فيغفر لها زوجها أو ولي أمرها ذلتها هذه، ولا يظن فيها السوء بأنها معتادة على فعل الفاحشة ومراودة الرجال، وكأنها تريد أن تقول لزوجها ليس ثمة شيء من الأحداث غاب عنك، فكل ما خفي قد عرفته ولا شيء أكثر من ذلك، فالمرأة الظالمة سوف تنهزم إذا ما وجدت صبرا وعزما أكيد من المظلوم لأخذ حقه منها وإعلان براءته وإثبات إثمها، بل وستفعل ذلك بنفسها وقبل أن يقيم المظلوم الحجة عليها، كل ذلك إذا لم يستسلم المظلوم لها ولظلمها، فهي تعلم علما أكيدا أنها مهما حاولت ستر فعلتها فإن الزمان سوف يفضحها، فتفعل ذلك بنفسها قبل أن تفضح بإقامة الحجة عليها، كل ذلك رهين الصبر والإصرار والعزيمة بعد الاستعانة بالله عليها.

قوله (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (53) هذا آخر ما قالته امرأة العزيز، حيث استتبع اعترافها شعور بالندم، وطلب لرحمة الله وعفوه ومغفرته، والله تعالى يقبل توبة العاصين، فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ "أَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا قَالَ لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ)[[131]](#footnote-131)

والنفس الآمارة بالسوء هي نفس آثمة لأنه تحمل صاحبها على فعل السوء بكل درجاته ولا تستحيي أن تفعل الفاحشة، ولذلك لابد من تزكيتها وتهذيبها وتربيتها على الصبر والتقوى، ولا يكون ذلك إلا بالحرمان مما تشتهيه من الحرام، والاعتدال في طلب الحلال، فـ (الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ)[[132]](#footnote-132)، وليس ثمة سبيل لتهذيب النفس إلا ذاك، لكن امرأة العزيز صارت نفسها لوامة بعد أن كانت نفسا أمارة بالسوء، وهذا تحول كبير في ذاتها، فالتعامل مع النفس البشرية يحتاج لسنوات من التهذيب والتربية والتزكية حتى تتحول إلى هذه الدرجة من تأنيب الضمير والمحاسبة للذات والاعتراف بالذنب، والاستغفار منه، وقد حصل لها ذلك لما رأته بعينيها من صبر شاب لم يتزوج على السجن وقد أحبه على أن يتحمل عناء مراودتهن له، كما أن النفس اللوامة تصير بالذكر والمداومة عليه نفسا مطمئنة، وتلك هي درجات النفس التي ذكرت في القرآن الكريم.

قوله (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) (54) انبهر الملك بظهور براءة يوسف باعتراف الجناة أنفسهن، وصبره على البلاء كل تلك السنوات ولم يتنازل عن حقه، ولم يستسلم للظلم، الأمر الذي حدا به إلى أن يعلن على الملأ جميعا أنه يريد أن يحظى به لنفسه، فيستشيره ويستأمنه على إدارة الحكم معه، فليس ثمة أمين يستحق أن يمكن مثله.

قوله (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) (55) لم يتردد يوسف عليه السلام في قبول هذه المسئولية، بل إنه طلبها لنفسه لعلمه أنه أقدر عباد الله على تحملها لما تميز به من صفتي الحفظ للأمانات، وقد ظهر ذلك من قصته، والعلم بشئون الاقتصاد والرعية، وقد ثبت ذلك من فتواه، لاسيما وأنه نبي مكلف بدعوة قومه، وحملهم على العدل، كذلك لعلمه أن هؤلاء يدينون بغير الحق، ولا يعدلون كل العدل، ولا غضاضة في ذلك رغم أن النبي نهي عن أن يطلب أحد الإمارة، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا)[[133]](#footnote-133)، وعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ) [[134]](#footnote-134).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية مبررا سبب طلب يوسف للإمارة (أنه كان طريقا إلى أن يدعوهم إلى الله، ويعدل بين الناس، ويرفع عنهم الظلم، ويفعل من الخير ما لم يكونوا يفعلوه، مع أنهم لم يكونوا يعرفون حاله، وقد علم بتأويل الرؤيا ما يئول إليه حال الناس، ففي هذه الأحوال ونحوها ما يوجب الفرق بين مثل هذه الحال وبين ما نهى عنه)[[135]](#footnote-135)، فإذا قيل أن هؤلاء ظالمين فكيف يشاركهم في ظلمهم بطلب التمكين له، فقد أجاب شيخ الإسلام (وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مَعَ كُفْرِهِمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَادَةٌ وَسُنَّةٌ فِي قَبْضِ الْأَمْوَالِ وَصَرْفِهَا عَلَى حَاشِيَةِ الْمَلِكِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَجُنْدِهِ وَرَعِيَّتِهِ وَلَا تَكُونُ تِلْكَ جَارِيَةً عَلَى سُنَّةِ الْأَنْبِيَاءِ وَعَدْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ يُوسُفُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يُرِيدُ وَهُوَ مَا يَرَاهُ مِنْ دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَكِنْ فَعَلَ الْمُمْكِنَ مِنْ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَنَالَ بِالسُّلْطَانِ مِنْ إكْرَامِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ يُمْكِنُ أَنْ يَنَالَهُ بِدُونِ ذَلِكَ وَهَذَا كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) فإذا ازْدَحَمَ وَاجِبَانِ لَا يُمْكِنُ جَمْعُهُمَا فَقُدِّمَ أَوْكَدُهُمَا لَمْ يَكُنْ الْآخَرُ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَاجِبًا وَلَمْ يَكُنْ تَارِكُهُ لِأَجْلِ فِعْلِ الْأَوْكَدِ تَارِكَ وَاجِبٍ فِي الْحَقِيقَةِ. وَكَذَلِكَ إذَا اجْتَمَعَ مُحَرَّمَانِ لَا يُمْكِنُ تَرْكُ أَعْظَمِهِمَا إلَّا بِفِعْلِ أَدْنَاهُمَا لَمْ يَكُنْ فِعْلُ الْأَدْنَى فِي هَذِهِ الْحَالِ مُحَرَّمًا فِي الْحَقِيقَةِ وَإِنْ سُمِّيَ ذَلِكَ تَرْكُ وَاجِبٍ وَسُمِّيَ هَذَا فِعْلُ مُحَرَّمٍ بِاعْتِبَارِ الْإِطْلَاقِ لَمْ يَضُرَّ. وَيُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا تَرْكُ الْوَاجِبِ لِعُذْرِ وَفِعْلُ الْمُحَرَّمِ لِلْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ أَوْ لِلضَّرُورَةِ؛ أَوْ لِدَفْعِ مَا هُوَ أحرم وَهَذَا)[[136]](#footnote-136).

قوله (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ) لن يتحقق التمكين إلا بعد تخطي مرحلة الصبر والمصابرة، والثبات على الحق، والحرص على ما ينفع، والاستعانة بالله تعالى، وعدم التسليم للظالمين أو الشعور بالعجز واليأس، ولأن يوسف عليه السلام تخطي تلكم المراحل فقد نال التمكين بإذن الله.

قوله (يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) كناية عن تصرفه في جميع مملكة مصر فهو عند حلوله بمكان من المملكة لو شاء أن يحل بغيره لفعل[[137]](#footnote-137)، وفي ذلك دليل على أنه كان عنده علم الإدارة السياسية، وأنه كان يفوض غيره في سلطاته، فكأنه يتبوأ بنفسه مكانتهم، فيمضون أمره دون أن يأمر هو، وهو ما يسمى بالإدارة اللامركزية، وكما أنه أختير على أساس الحفظ والأمانة فكذلك كان يختار من يفوضه على مثل ذلك، وهو ما يعني أنهما المفوض والمفوض إليه يبتغيان الصالح العام في كل تصرفاتهما.

قوله (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (56) تلك هي نفحة من رحمات الله تعالى ولم يزل يوسف علي السلام يبتلى حتى لم يبقى عليه شيء، وظل صابرا محتسبا حتى يتعرض لنفحات الله، قال رسول الله (إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا له لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبدا) [[138]](#footnote-138)، وفي رواية (افعلوا الخير دهركم، و تعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده و سلوا الله أن يستر عوراتكم و أن يؤمن روعاتكم )[[139]](#footnote-139)، قال الشيخ أبو بكر الجزائري (هذا وعد من الله تعالى لأهل الإِحسان بتوفيتهم أجورهم)[[140]](#footnote-140).

قوله (وَلَأَجْرُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (57) قال ابن تيمية (أَخْبَرَ - سبحانه- أَنَّ أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ مِمَّا يُعْطَوْنَ فِي الدُّنْيَا مِنْ الْمُلْكِ وَالْمَالِ كَمَا أُعْطِيَ يُوسُفُ)[[141]](#footnote-141).

الجزء السابع

# التقاء يوسف بأخوته وعفوه عنهم وسجودهم له، وارتقاء أبويه على العرش

وفيه أربعة مشاهد، المشهد الأول يتمثل في رحلة أخوة يوسف لمصر وقت الأزمة الإقتصادية التي تنبأ بها يوسف عليه السلام، وقد لجئوا إليه ليكتالوا بالقمح،وقد عرفهم وهم لا يزالون يجهلون أنه أخوهم، فاحتال عليهم ليأتوا بأخيه الأصغر، وهددهم بمنع الكيل عنهم حتى يأتوا بأخيهم من أبيهم، وقد رحلوا، وسألوا أباهم أن يرسل معهم أخيهم الأصغر فأبى وظلوا في مراودته على ذلك حتى أجابهم على مضض، وأوصاهم بأن يتفرقوا وهم داخلين على العزيز مخافة أن يحسد جمعهم الحاسدون، والمشهد الثاني يتمثل في حيلة يوسف عندما رأى أخاه الأصغر مع أخوته الذين ألقوه في الجب، فأراد تخليصه منهم مخافة أن يغدروا به عند رجوعهم، ونجح في حيلته، الأمر الذي أربك هؤلاء الأخوة، ولم يملكون اعتذارا لأبيهم في التفريط به، ومن قبل قد فرطوا في يوسف، فلما أخبروا أباهم بالخبر وأتوا إليه بالأدلة فجع فجعة فقد معها بصره، وصبر واحتسب، وظل يشكو بثه وحزنه إلى الله، وأمرهم أن يعودوا من حيث جاءوا لعلهم يعثرون على مدخل يمكنهم من الإتيان بأخيهم الأصغر ولا ييأسوا من ذلك، والمشهد الثالث تمثل في اكتشاف أبناء يعقوب أمر يوسف عليه السلام، ومفاجأتهم بمعرفة أنه أخيهم وقد مكنه الله تعالى في الأرض، واعتذارهم له، وعفو يوسف عنهم، ومسارعتهم لنقل خبره لأبيهم واستبشار يعقوب عليه السلام بالخبر وشفائه ورد بصره له، وإقرارهم بذنبهم أمام أبيهم وطلبهم لعفوه ومسامحته، ودعائه لهم بالمغفرة، والمشهد الرابع هو لقاء يوسف بأخوته وأبيهم واجتماع شمل الأسرة، وسجود إخوته له، وارتقاء أبويه على العرش والتعقيب على القصة كلها وتلك هي خاتمة السورة.

المشهد الأول

# رحلة أخوة يوسف لمصر وعودتهم لأبيهم

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (58) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (59) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (60) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (61) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (62) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (63) قَالَ هَلْ آَمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (64) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (65) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (66) وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (67) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (68)

قال عاشور (طوى القرآن أخره أمر امرأة العزيز وحلول سني الخصب والادخار ثم اعتراء سني القحط لقلة جدوى ذلك كله في الغرض الذي نزلت السورة لأجله، وهو إظهار ما يلقاه الأنبياء من ذويهم وكيف تكون لهم عاقبة النصر والحسنى، ولأنه معلوم حصوله، ولذلك انتقلت القصة إلى ما فيها من مصير إخوة يوسف - عليه السلام - في حاجة إلى نعمته، ومن جمع الله بينه وبين أخيه الذي يحبه، ثم بينه وبين أبويه، ثم مظاهر عفوه عن إخوته وصلته رحمه، لأن لذلك كله أثرا في معرفة فضائله)[[142]](#footnote-142).

قوله (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (58) جاءوا من أرض مجاورة لمصر لسريان الجدب إلى هذه المنطقة، وقد استثمر يوسف أرض مصر فزرعها سبع سنوات قبل أن يأتي الجدب وأحسن التدبير حتى استفاد من الحصاد في وقت الجدب، ولم يمنع خير بلاده البلاد المجاورة، ولذلك جاءوا إليه لعلمهم عدله وإنصافه وكرمه، وفي دخولهم عليه بهذه الكيفية دليل على أنه لم يحتجب عنهم، ففي الحديث عن رسول الله قال (مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ)[[143]](#footnote-143)، وفي رواية (فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة)[[144]](#footnote-144).

وقد عرفهم رغم مرور سنوات على إساءتهم إليه، لكن الإساءة تعلق في الذاكرة ويصعب على من أُسيء إليه أن ينسي المسيء له، بينما هم أنكروه فقد مضى زمان على يوسف وهو صغير وقد تغيرت هيئته بالكلية، فيتعذر عليهم تذكره، وهو الأمر الذي يبين خطورة الظلم، وكيف أن المظلوم لا ينسى ظالمه مهما طال الزمن وتغيرت هئته.

قوله (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) (59) جهز يوسف راحلتهم ببعض المتاع والمعونة، وأوصاهم بأن يحضروا أخاهم من أبيهم ليأخذ نصيبه بنفسه، حيث لا دليل على هويته غير حكايتهم عنه، قال الرازي (اعلم أنه لا بد من كلام سابق حتى يصير ذلك الكلام سبباً لسؤال يوسف عن حال أخيهم، وذكروا فيه وجوهاً أحسنها إن عادة يوسف عليه السلام مع الكل أن يعطيه حمل بعير لا أزيد عليه ولا أنقص، وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة، فأعطاهم عشرة أحمال، فقالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقي معه، وذكروا أن أباهم لأجل سنه وشدة حزنه لم يحضر..)[[145]](#footnote-145)، قال الشيخ طنطاوي (بعد أن دخل علي يوسف إخوته وعرفهم، أكرم وفادتهم،وعاملهم معاملة طبية جعلتهم يأنسون إليه، وهيأ لهم ما هم فى حاجة إلأيه من الطعام وغيره، ثم استدرجهم بعد ذلك فى الكلام حتى عرف منهم على وجه التفصيل أحوالهم، وذلك لأن قوله لهم "ائتوني بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ" يستلزم أن حديثا متنوعاً نشأ بيته وبينهم، عرف منه يوسف، أن لهم أخا من أبيهم لم يحضر معهم وإلا فلو كان هذا الطلب منه لهم بعد معرفت لهم مباشرة، لشعروا بأنه يعرفهم وهو لا يريد ذلك)[[146]](#footnote-146)، فعَنْ قَتَادَةَ،" " ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ "، يَعْنِي: بِنْيَامِينَ، وَهُوَ أَخُو يُوسُفَ لأَبِيهِ وأُمِّهِ"[[147]](#footnote-147)، ذكر السدي وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ قالوا: أيها العزيز، إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البَرِيَّة، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم)[[148]](#footnote-148).

قوله (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ) (60) هذه هي حيلة ألقاها يوسف عليه السلام ليأخذ شقيقه من أخوته لأبيه، ويطمئن أنه لم يمسه شيء من غدرهم، إذ لو وقع الظلم منهم عليه وحسب فله أن يسامحهم ويغفر لهم، أما إن وقع على غيره، فليس له إلا أن يقتص منهم له، فهددهم بحرمانهم من الكيل حتى يأتوه به.

قوله (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) (61) يدل على أن همهم هو الكيل، وليس شيء يشغلهم عن ذلك، ولذلك عزموا الأمر على أن يلحوا على أبيهم بأن يرسل معهم أخاهم الأصغر، وليس يشغلهم أن يرفض أبوهم أو يأبى طلبهم.

قوله (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (62) تلك حيلة أخرى لجأ إليها يوسف لكي يضمن رجوع أخوته إليه مرة أخرى، ولا ينزعجوا من تهديده لهم أنه لن يكيل لهم المرة القادمة إذا لم يقدموا بأخيهم من أبيهم، فرد إليهم بضاعتهم التي جاءوا بها ليبتاعوا القمح بها، قال الكلبي (تخوّف يوسف أن لا يكون عند أبيه من الورق فلا يرجعون مرّة أخرى)[[149]](#footnote-149)، واستعان في هذا العمل بفتيان في مقتبل سن الشباب، وهكذا يجب أن يعمل الشباب في العمل التطوعي والخيري بل ويربون على ذلك، فأمر أن يجعلوا البضاعة التي اشتروا منه بها الطعام في أوعيتهم، قال ابن جزي(لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ) أي لعلهم يعرفون اليد والكرامة في ردّ البضاعة إليهم، وليس الضمير للبضاعة، وقوله (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي لعل معرفتهم بها تدعوهم إلى الرجوع وقصد برد البضاعة إليه مع الطعام استئلافهم بالإحسان إليهم)[[150]](#footnote-150)، قال الثعالبي (الظاهر منَ القصَّة أنه إِنما أَراد الاستئلاف وصِلَةَ الرحِمِ)[[151]](#footnote-151).

قوله (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (63) إشارة إلى قول يوسف"فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي"، ويكون منع يراد به في المستأنف، وإلا فقد كيل لهم)[[152]](#footnote-152)، منع منا الكيل لأخينا، فأرسله معنا لنكتل له، بدليل قولهم (وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ) أي سألوه أن يرسله ليزدادوا كيلا، وتعاهدوا بحفظهم له

قوله (قَالَ هَلْ آَمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ) (64) ما يدل على أنهم ظلوا سنوات لا يستأمنهم أبيهم على أخيهم، وهذا من باب عدم تكرار التجربة، واستئمان من ليس أهلا للأمانة، بعدما ثبتت التجربة فشله عن تحملها، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي قَالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةُ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[[153]](#footnote-153).

قوله (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) ذكره بعدما اتخذ من الأسباب ما يملك، بأن عاتبهم على ما مضى منهم من التفريط في يوسف، بصرف النظر عن تعمدهم أو إهمالهم، ثم استرجع وذكر أن الله هو الحافظ، بل هو خير حافظا، فحفظ الله خير من حفظهم، يقول سبحانه (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) (النساء/9)، فذلك هو التوكل على الله تعالى، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك أمامك)[[154]](#footnote-154)، إلهي ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك متحولا، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقةُ عبدٍ لم تجعلْ من حُبِكَ نصيباً.

كما أنه تذكر لطف الله تعالى ورحمته، ففي كل ما يقضي به قضاءه رحمة بعباده المؤمنين، وفي ذلك دليل على تفويض أمره إلى الله واطمئنانه لما يجري به قضاؤه، وتسليم بما يؤول إليه أمر أولاده، فهو يعلم أن يوسف في حفظ الله، وكذلك استودع بنيامين عنده سبحانه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ وَدَّعَنِي رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ (أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ)[[155]](#footnote-155)، أي (الذي إذا استحفظ وديعة لا تضيع فإنه تعالى إذا استودع شيئا حفظه)[[156]](#footnote-156)، وعن عبد الله بن يزيد قال كان رسول الله إذا ودع جيشا قال: استودع الله دينكم و أمانتكم و خواتيم أعمالكم)[[157]](#footnote-157).

قوله (وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) (65) ألحوا على أبيهم في السؤال، ولما وجد أبيهم أن البضاعة ردت إليهم زاده ثقة فيهم، وفي الملك، الأمر الذي حمله على الموافقة بعد أن اشترط عليهم، وكأن يوسف رد هذه البضاعة لإرسال رسالة لأبيه فيطمئن ويرسل أخوته له مرة أخرى، فجعله يرجح بين مصالح عدة إزاء خوف واحد، فالمصالح المرجوة أن يأتوا بالمير – أي القمح – لأهلهم، ويزدادوا في ذلك كيل بعير، فهو يكيل بعير لكل واحد، وليس ذلك بعزيز على الملك، فهو أمر يسير، تلك هي المصلحة المرجوة، وإزاءها خوفه من أن يضيع أخاهم كما ضاع يوسف.

قوله (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) (66) هنا رجح يعقوب عليه السلام تحقيق المصلحة على مخاوفه اعتمادا على قضاء الله وقدره، ولكنه في ذلك الوقت التمس الأسباب الموصلة لرضا الله تعالى، وليس يملك من الأسباب غير عهدهم له، فهو يثق في إسلامهم، وقد وصاهم به قبل موته، فليس بينه وبينهم عهد إلا ذاك فقال لهم مشترطا (حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ)، أي لا عذر لكم هذه المرة، فألزمهم ببذل عناية الرجل الحريص، ولم يكتف بإلزامهم ببذل عناية الرجل المعتاد، فالقوة القاهرة هي وحدها سبب لدفع المسئولية عنهم، وهي عذرهم في إسقاط الإلتزام، ومَثَّل لها بقوله (إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) أي يحيط بكم إما قطاع الطرق أو عساكر الملك، وليس لكم سلطان في دفعهم، عَنْ قَتَادَةَ،" " إِلا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ "، قَالَ: إِلا أَنْ تُغْلَبُوا، حَتَّى لا تُطِيقُوا ذَلِكَ"[[158]](#footnote-158).

قوله (فَلَمَّا آَتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ) قَالَ السُّدِّيِّ: فَحَلَفُوا لَهُ"[[159]](#footnote-159)، ودل على أنهم أقسموا على ذلك، بتحمل هذه الأمانة، وأنهم أهل لحملها، وأنهم مسئولون عن تحقيق نتيجة، وليس مجرد التزام ببذل عناية، ولا دافع لهذه المسئولية إلا القوة القاهرة كما ذُكر، واكتفاء يعقوب عليه السلام بهذا القسم يدل على أنه جدد ثقته في أبنائه رغم من تقدم من أمرهم في الكيد ليوسف، ولعله سامحهم بمرور الزمن، فالزمن جزء من العلاج، وإنصلاح الحال دليل على تغير القلب للأفضل، وقد استشف منهم ذلك بحفظهم للفرائض والتزامهم شرع الله، فالتوبة تجُب ما قبلها.

وقوله (قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) يدل على تفويض الأمر لله، وأن المخاوف مهما بلغت لا تثني الرجل عن المضي قدما في حياته، ولابد أن يرجح دوما جانب الخير على مخاوف الشر اعتمادا على الله تعالى، فهو بيده مقاليد الأمور.

قوله (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) (67) التمس يعقوب عليه السلام كافة الأسباب الشرعية لاتقاء المخاطر، وذلك حتى يكون اعتماده على الله تعالى غير مخالف لأصول الاعتقاد، فمن اعتمد على الله وتوكل عليه حافظ على أمره وانتهى عن نهيه، ومن جملة الأوامر الشرعية الاستعاذة بالله تعالى من الحسد والحاسدين، واتقاء العين والعائنين، فأمر بنيه بالدخول على الملك من أبواب متفرقة ونهاهم عن الدخول عليه جملة واحدة حتى لا يظهر عددهم وقوتهم واتحادهم فيحسدهم الناس على ذلك، لاسيما وأنه طالبين منه الاستزادة، فالناس يرون حصتهم قد عظمت، فيحسدونهم على ذلك، وهذا يؤلم ضعاف القلوب الذين لم ينجبوا، ولم ينالوا إلا حصة واحدة أو حصتين، بينما حصتهم تزيد على العشرة، لكنه استتبع ذلك بتفويض الأمر إلى الله تعالى بقوله (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ)، فلو أراد الله بهم بلاء فسوف ينزل بهم ولا دافع له إلا الله، (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) فكل بقضائه وقدره، وتلك هي حقيقة التوكل عليه، يقول الإمام التبريزي (فالتوكل المحمود هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب)[[160]](#footnote-160) (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) فليس معنى التوكل ترك الأسباب، بل إن صدق التوكل الأخذ بها دون الاعتماد عليها، عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ قَالَ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ)[[161]](#footnote-161)، يعني بذلك هل أعقل الناقة – اربطها – أم أن التوكل على الله يمنع ذلك، فقال له الرسول (اعقلها وتوكل) يعني خذ بالأسباب ولا تعتمد عليها وإنما اجعل توكلك واعتمادك على الله وحده، فهو خير حافظا، قال ابن حجر (أشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل)[[162]](#footnote-162)، قال المباركفوري (فيه حث على الحزم والاحتراس من مظان الضر والأذى)[[163]](#footnote-163).

قوله (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) (68) هنا تستبين بركة بر الوالدين، فأبوهما ليس معهم، لكنهم يحافظون أمره، والتزموا نصيحته، دون أن يسألوه عن علة ذلك وحكمته، وتدل هذه الآية على انصلاح حالهم بعد معصيتهم، ولذلك جدد يعقوب ثقته فيهم، وإن كان يخشى رعونتهم في تحمل المسئولية، لكنهم التزموا نصيحته وآداب الإسلام دون حاجة لأن يعلموا الحكمة من ذلك، وقد روي أنه (ليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه، وقيل عن حق الجار (إذا استعانك أعنته وإذا استقرضك أقرضته وإذا افتقر عدت عليه وإذا مرض عدته وإذا أصابه خير هنأته وإذا أصابته مصيبة عزيته وإذا مات اتبعت جنازته ولا تستطيل عليه بالبناء تحجب عنه الريح إلا بإذنه ولا تؤذيه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها وإن اشتريت فاكهة فاهد له فإن لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده)[[164]](#footnote-164)

قوله (مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) يعني (ما يرد عنهم قدراً لأنه لو قضى أنْ يصيبهم عين لإصابتهم متفرقين أو مجتمعين، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته قدر السلامة)[[165]](#footnote-165)، فلا يغني حذر من قدر، لكن أخذ الأسباب مطلوب على كل وجه، فعَنْ النَّبِيِّ قَالَ (الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا)[[166]](#footnote-166).

قوله (إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) لم يحدثهم عما في صدره من الأخذ بأسباب التقاء الحسد لأن استطراد الحديث عن الظنون غير معقول المعنى، فعَنْ النَّبِيِّ قَالَ (الْعَيْنُ حَقٌّ)[[167]](#footnote-167)، ويقول النبي (: إن العين لتدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدر )[[168]](#footnote-168)، ولذلك كتم الأمر في صدره واكتفى بأمره لهم، فهم في فاقة شديدة، والناس متلهفون على الطعام، وذهابهم بنصيب يزيد عن العشرة قد يثير شيئا في نفوس من يرونهم، وليس من المروءة أن يشبعون بأخذ نصيبهم، ولا يزال غيرهم لم يأخذ نصيبه بعد، يقول النبي (ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع)[[169]](#footnote-169).

قوله (وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) يدل على أن من آداب الإسلام عدم الحديث عن النعمة عند المحروم منها، وعدم التفاخر بالأموال والأولاد وستر ذلك، لأن من الناس من هو مبتلى بفقد ذلك، وإنما الحديث عن النعمة يكون بإظهار فضل الله تعالى على المنعم عليه دون حاجة لاستقصاء الأمر وتفصيله، بل الواجب عند الاستقصاء وظهور النعمة أن يعطي غيره منها، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ إِنَّ خَلِيلِي أَوْصَانِي إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ)[[170]](#footnote-170)، فهذه جملة من الآداب يجهلها كثير من الناس.

المشهد الثاني

# حيلة يوسف لأخذ أخيه الأصغر وفجعة يعقوب عليه

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (69) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (70) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (71) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (72) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (73) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (74) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (75) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (76) قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (77) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (79) فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (80) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (81) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (82) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (83) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (87)

قوله (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (69) هكذا يحن الأخ لأخيه بعد فراق دام سنوات، لكن الشوق لا يزال مشتعلا في القلوب، فهو لم يكن ضمن العصبة التي تآمرت عليه وألقته في الجب، فهو أخيه الأصغر وشقيقه، بل هو محل شفقته ومكمن خوفه أن يتآمر عليه أخوته من أبيه، ولذلك دخل عليه متلهفا، فقوله (آوى إليه) يبين مدى الخواء القلبي الذي أراد يوسف أن يشبعه بلقاء أخيه، فقد ظل لسنوات يعيش بلا أسرة، وها هو الآن يجتمع مع أحد أفراد أسرته الحقيقية، (إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون)، هون عليه الإساءة التي لاقاها (بنيامين) من أخوته لأبيه، والفظاظة التي وجدها منهم، حتى وصل به الحال إلى الشعور بالبؤس، (والبؤس: هو الخزن والكدر)[[171]](#footnote-171)، فلا تزال الغيرة كامنة في قلوبهم، ولا يزال الحاسد حاسدا لولا الحذر منه لأحرق بشره كل من حوله،لكن الله تعالى يبطل كيده.

قال تعالى (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) (70) (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ) (71) (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) (72) (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) (73) (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) (74) (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (75) (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ)

هنا لما علم يوسف إساءة أخوته لبنيامين حتى أحزنوه وأحس معهم بالبؤس دار في خلده محاولتهم للغدر به أثناء رجوعهم لأبيهم، وقد حصل لهم ما أرادوا بعد أن اكتالوا،وأوفى لهم الكيل بزيادة حمل بعير، أو على أقل تقدير أن يعاني بنيامين مرارة البؤس وسوء المعاملة من أخوته مرة أخرى، فلم يملك نفسه حتى حجزه عنهم بتلك الحيلة، وتمثلت في أن أخفى صواعه في حمل أخيه (بنيامين) واتهمهم بسرقته، وبتفتيش أوعيتهم وجد الصواع في رحل بنيامين، فكانت العقوبة الظاهرة هو أن يسترقه يوسف لنفسه، ولم يملك أحد من أخوته حق الاعتراض إلا أرشدهم، مخافة أن يحزن أبيه، ولعله هو الذي طاوع أخوته في الكيد ليوسف لكنه أشار لهم بإلقائه في البئر بدلا من قتله، ارتكابا لأخف الضررين، فأشار كذلك على الملك بأن يأخذ أحدهم مكان بينامين، فهؤلاء أقوى على تحمل الأسر منه، شريطة ألا يحزنوا قبل أبيهم وقد تفطر من غياب يوسف، ولا يأمنه عليه إذا علم بفقد بنيامين كذلك.

وفي هذا المشهد عدة ملاحظات:-

قوله (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ): يدل على آداب تقديم الخدمة العامة، وأخلاق من يتصدى للعمل العام، فقد جهزهم بنفسه وبمن تحت أمره من فتيته،وقد نسب القرآن العمل له، لأنه هو الولي ومسئول عن تحقيق نتيجة، فلو قصر فتيانه في شيء فإنه يلتزم بتعويض هذا التقصير، وهكذا يجب أن يكون من يتولى أمرا من أمور الرعية

قوله (ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) إعلان للكافة بوجوب التحقيق في جريمة وقعت، وإذعان بأن اجراءات التحقيق قد تطول الموجودين، ولذلك عليهم أن يفسحوا الطريق للمحقق ولا يعترضوه في أي إجراء يتخذه ضدهم لأجل إحقاق الحق وسلامة العدالة،

قوله (أيتها العير إنكم لسارقون) توجيه الاتهام على شيوع بين أناس منحصرون ومحددون بالوصف،وهم أصحاب العير الذي جاءوا ليحملوا عليها ما يجهزهم به العزيز من الزاد لحاجتهم له،

قوله (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ) يدل على رغبة الحاضرين بتلقي الخبر بتفاصيله بما يؤكد روح التضامن مع الدولة والتكاتف معها وقت الأزمة والشدة، ويجدد ثقة الدولة فيهم، ولذلك ورغم شيوع الاتهام اتفق العزيز معهم على تقرير عقوبة جنائية على من ثبتت الجريمة عليه، ولولا هذه الثقة لما حصل مثل هذا الاتفاق، ولولا اهتمامهم بهذا الأمر لما تشاور معهم في ذلك، وهكذا تجري الأحداث وفق تقدير الله تعالى وقدره، ولا شيء يخالفه.

قوله (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ) تضمن وعدا بجائزة لمن جاء بالمفقود، وهو التزام قانوني من طرف واحد، وجائز الالتزام به، ومحل الجائزة أن يزيده حمل بعير آخر، فيكون له بدلا من نصيب واحد نصيب اثنين، وهو الأمر الذي يحمل السارق أن يتراجع عن سرقته ويأخذ حمل بعير بدلا من أن يخاطر بعقوبة السرقة إن ثبتت عليه، وهذا وإن كان جائزا في شريعة النبي محمد فهو في مسألة توبة الحربي قبل القدرة عليه، كما في سورة المائدة، ويمكن أن يقاس عليها إذا عجزت السلطات عن القبض عن مرتكب الجريمة فلها أن تعلن العفو عن الجاني إذا ما أتى بالشيء المسروق، بل وله جائزته، لكن شريطة أن يكون ذلك عن عجز أو مسامحة من المجني عليه، فتجوز قبل القبض على الجاني، ويحصل ذلك إذا ما كان محل الجناية ثمين ونفيس ولا يقدر على تعويضه أحد، كما هو الشأن في صواع الملك.

قوله (وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) أي ضامن لإنفاذ الوعد بتلك الجائزة، وأي أن الملك ضامن بنفسه هذه الجائزة لمن يأتي بالصواع المفقود، ولا يمكن أن ينكث الملك في وعده، وإلا لما نفذ قوله بعد ذلك ولم يصدقه أحد فيما يعد به.

قوله (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) استشهدوا عليهم بما مضىى من التعامل بينهم، وظهور نيتهم في الاستزادة من الكيل، وليس لديهم حجة غير ذلك.

قوله (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ) تطبيق القانون المحلي على رعايا الدول المجاورة بالاتفاق فيما بينهم، فالأصل أن القانون المحلي يسري تطبيقه على رعايا الدولة متى كانوا خارج القطر أو داخله، بينما من ليسوا من رعاياها فهنا يسري القانون المحلي في حقهم متى دخلوا بأمان حدود الدولة المحلية، إلا أن يكون ثمة اتفاق بين الدولة المحلية والدول الأخرى في أن يخضع الرعايا الأجانب لقانون دولتهم أو مايتم الاتفاق عليه، ولما كانت الأزمة طاحنة وقد لحقت بالدول المجاورة لمصر، فإن المتهمون مراكزهم القانونية مختلفة، فمن هؤلاء المتهمون رعايا لدول قد تكون وقعت اتفاقية جنائية مع مصر على نحو معين، وغيرها من الدول لم توقع ذلك، فما كان منه إلا أن عمم القاعدة وجعل ثمة اتفاق يعم الجميع،وهو طرح المسألة للمناقشة ليكون الاتفاق على ما يتم الاتفاق عليه.

قوله (جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) (75) يعتبر اتفاق دولي بسريان قاعدة جنائية مكانيا على رعايا الدول الأخرى المتهم بعض رعاياها في هذه الجريمة، وهو اتفاق واجب التطبيق علي من يثبت عليه ارتكاب تلك الجريمة وقد وقعت داخل حدود القطر المصري وأي داخل نطاق سريان القانون المصري مكانيا، وهذا الجزاء يسري سواء أكان ثمة اتفاق دولي أو إقليمي أو لم يحصل مثل هذا الاتفاق، ولكن هذا الاتفاق يزيد الأمر رسوخا ويدرأ أي محاولة للتملص من حكم العزيز وإنفاذ قوله، لاسيما وأنه يريد إقناع أخوته بتلك الحيلة، كما أنه يمهد للأمر باتخاذ الاجراءات الجنائية مثل تفتيش الأمتعة، وضبط الجاني والقبض عليه.

قوله (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ) لحبك الحيلة عليهم وبيان حيدته وأنه لا يظلم أخيه، ولا يتهمه على وجه الخصوص بدأ بأوعيتهم، وأخر التفتيش لوعاء أخيه حتى ينتهوا من الفراغ من تفتيش أوعيتهم، وهذا الإجراء لا يضر أحدا، وإن كان بقصد الحيلة فهو جائز، فالإجراءات الجنائية تم عملها في إطار من العلانية والشفافية حتى لا يكون لأحد مطعن عليها، ولا يمكن لأحد أن يتذرع بأن الصواع قد دس في متاعه، حيث تكون الجريمة متلبس بها، ولا يزال الجاني لم يغادر مسرح الجريمة.

قوله ( كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (76) أي أن الله تعالى علم المخلصين من عباده كيف يكيدون على أعدائهم وحاسديهم [[172]](#footnote-172)، قال ابن عاشور (وأسند الكيد إلى الله لأنه ملهمه فهو مسببه)[[173]](#footnote-173)، وكيد الله متين، لا مجال ليفر العدو منه، وليس ثمة وسيلة لحرب الحاسدين – خصوصا- إلا بالكيد لهم، والتدبير في خفاء، والكيد للحاسد خير من مواجهته، ذلك أن غاية الكيد له تخليصه من شره، بينما ف مواجهته إنهاء أمره، وليس الغاية هو إنهاء الحاسد وإقصائه بقدر الغاية هي إرجاعه للرشد والصواب، وإلزامه بالقناعة.

قوله (مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) استطاع يوسف الكيد لأخوته وتحقيق الحيلة التي بها تمكن من الحصول على أخيه باستغل قوانين الملك التي تجيز استرقاق السارق، وتطبيقها على تلك النازلة لما فيها من مصلحة محققة له ولأخيه الشقيق وأبيه كذلك، وليس فيها ضرر للغير، وبهذا نفهم أن القوانين الوضعية جائز الاستعانة بها طالما ليس فيها ضرر للغير أو عدوان على الحقوق المشروعة، فقد أخذ يوسف هذا القدر منها – أي القوانين – بما يحقق له تلك المصلحة، ولم يطبق ما عدا من تعليمات قد يكون بها ظلم للغير.

قوله (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) يفتح بابا واسعا من السياسة الشرعية في تعلم فنون العلم الوضعية لاسيما القوانين، ودراستها وفهمها والانشغال بها، والتوصل منها إلى الغايات المحمودة والمصالح المرسلة، فهذا كله باب من العلم واسع، حيث يستعين الفقيه بها على فهم واقع الناس وحاضرهم، لإنزال المصالح المعتبرة وكذلك المرسلة عليها، فيكون ذلك هو العلم الذي يتوصل به إلى مراد الله تعالى في خلقه، ويتوصل منها كذلك إلى تقليل الضرر من العمل بالمصالح الملغاة قدر المستطاع.

قوله (قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) (77) هنا أساء أخوة يوسف الأدب، وبدا افتراءهم على يوسف أمامه، دون خجل، وهم لا يعلمون أنه هو، قالوا ذلك بهتانا ونفيا للمعرة عن أنفسهم، فهم أبناء أم واحدة، ولذلك ألقوا بالتهمة على بنيامين وأخيه يوسف لأنهما من أم أخرى، وهكذا يتجدد الحسد مرة أخرى في صورة البهتان والإفتراء هذه المرة، لكن يوسف عليه السلام أسرها في نفسه، ولم يرد عليهم بالإساءة مثلهم، ولم يبد لهم أي انفعال جسدي من قولهم، وإن كانت نفسه لتؤلمه من ذلك، ولكنه الصبر الذي طالما تعود عليه، فتحدث بينه وبين نفسه قائلا (أنتم شر مكانا) حيث ضاق صدره منهم،وعدم أسفهم على جريمتهم طوال هذه السنوات حتى تجرؤوا على اتهامه بالسرقة بعد ذلك، لكن عزاءه الوحيد هو الله سبحانه، فهو مطلع على كل شيء، وأعلم بقوله ووصفهم له، وقد عوضه عن ذلك فجعله أمين أهل الأرض، ومكنه من خزائنها، وليس في ذلك رد على قولهم غير امتنانه بفضل الله عليه ورحمته، فغاية ما يذهب غيظ نفسه تذكر فضل الله عليه، كما ذكرنا ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك، وقد استأمنه الله على خزائن الأرض فكيف به يغتاظ لقولهم هذا.

قوله (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (78) استعطفوه بقولهم (إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا) بما يظهر مخافتهم من أن يصيب أباهم سوء من القبض على أخيهم (بنيامين)، فاقترحوا عليه اقتراحا، هم في هذا الاقتراح يضمرون شيئا ويظهرون آخر، يضمرون العزوم أن يكون أحدهم هذا الرجل الذي يضحي بنفسه لأجل أخيه، ويظهرون موافقتهم على ذلك، وفي ذلك تناقض عجيب، قال ابن عطية (يحتمل قولهم أن يكون مجازاً، وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حرّ بسارق بدل من قد أحكمت السنة رقه، وإنما هذا كمن يقول لمن يكره فعله: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك ولكنك تبالغ في استنزاله)[[174]](#footnote-174)، وكأن هذا القول الذي صدر عنهم من باب إخفاء ما في صدورهم من الفرح، وقد مضى قولهم في شأنه (إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ) تصديق على اتهامه وتخليا عن الدفاع عنه، ودون تربص لنتيجة التحقيق معه، والذي يؤكد أنهم مخادعون قولهم (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)، فكيف يظنون بمحسن أن يخالف الأصول المتعارف عليها في كل الشرائع من أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن استبدال برئ بجاني يبطل الردع العام.

من ذلك يستبين التضليل اللفظي لهؤلاء الأشرار – كما سماهم نبي الله يوسف- كي لا ينخدع أهل الحق بالألفاظ، وأسلوب الاستعطاف، فالكياسة واجبة في إطار التحقيق والتدقيق والتثبت قبل إصدار الحكم والتلفظ به

قوله (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ) (79) فالظلم المشار إليه في هذه الآية هو أن يستبدل برئ بجاني، فذلك يجعل كل من عنده سلطة أو مال يفعل ما يشاء من جرائم ثم يستبدل الأبرياء مكانه في الاتهام والعقاب الجاني، وهذا هو عين الظلم إذا حصل، كما أن الاتفاق على ذلك باطل، فلا هو جائز فيما بين المتفقين، ولا يمضي في مواجهة الغير، لمخالفته للنظام العام لكل الشرائع السماوية ومبادئ العدل والإنصاف في كافة الأعراف المجتمعية، والعلة من ذلك ظاهرة وهي إبطال الردع العام للعقوبات، فضلا عن امتهان الإنسان وإساءة استغلال شرفه وعرضه وحاجته وفاقته.

قوله (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) تضمن تعارضا في رد الفعل، فقوله (استيئسوا) يدل على محاولتهم تبرئة أخيهم أو الدفاع عنه، ولو لم يكن من بعضهم فإنه بالتأكيد من أخيهم الأكبر، وقوله (خلصوا نجيا) يدل على أنهم كانوا في هذا الموقف في ضيق شديد، ولما خلص دفاع أخيهم الكبير عن أخيهم الأصغر تخلصوا مما هم فيه من الضيق وبدأوا في مناجاة مع بعضهم البعض للشروع في الرجوع لأبيهم ناجين من أن يلحقهم اتهام آخر، ما يدل على أنهم لم يكونوا على قلب رجل واحد، حيث خالفهم كبيرهم في هذا الرأي.

قوله ( قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) (80) هنا يبدو جليا القلق والاضطراب النفسي والاختلاف في الرؤى بين الأخوة وبعضهم البعض، فها هو كبيرهم، ولعله أرشدهم يلوم عليهم التفريط في بنيامين كما فرطوا هم في يوسف من قبل، ومافقتهم لإدانة أخيهم الأصغر بجريمة السرقة، ومحاولتهم الرجوع بالعير لأبيهم دون انتظار براءته أو محاولة تبرئته والدفاع عنه، فهم قد خلصوا نجيا وهو لم يبرح الأرض حتى يحكم الله في تلك المسألة بقضاء يرضى عنه أبيهم، ولعله هو الذي اقترح على أخوته إلقاء يوسف في البئر بدلا من قتله ارتكابا لأخف الضرين، والله أعلم،

قوله (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ) (81) أقر أخوهم الأكبر رأي الأغلبية في أن يرجعوا إلى أبيهم، وقد أوصاهم بأن يخبروه بما رأوه بأم أعينهم من اتهام أخيهم من أبيهم بالسرقة، واعتذروا بكونهم قد أخذ عليهم موثقا بأنهم سوف يأتونه به، ولكن قد حيل بينهم وبين إنفاذ وعدهم هذا ما لم يكونوا يعلمون مما غاب عنهم من أنه سوف يقع في الرق، فهذا عذرهم، ولو كانوا يعلمون ذلك ما راودوا أباهم في إرساله معهم حتى لا يتهموا بالتفريط به كما اتهموا بالتفريط في يوسف، وقد تابوا عن ذلك.

قوله (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) (82) استشهدوا على براءتهم بشهادة العير التي أقبلوا فيها، وإذا لم يصدقهم فله أن يسأل أهل القرية التي كانوا فيها ليتأكد من خبر حجزه لدي الملك، فهم يفسحون المجال لأبيهم لأن يحقق في الأمر حتى يذهب ما في قلبه من شك نحوهم،

قوله (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا) (83) اتهمهم نبي الله يعقوب دون أن يحقق في المسألة ليس اعتمادا على ما مضى من شأنهم بفقد يوسف والتفريط فيه، ليس متهما لهم العيب بتعمد تضييع بنيامين من أيديهم والتفريط في حقه، وإنما لإثبات جريمة السرقة في حق ابنه بنيامين وهو أدرى الناس بعدالته ودينه، فضلا عن عدم الدفاع عنه كما وعدوا أباهم وقد أخذ عليهم الميثاق في ذلك، قال الرازي،إنما عنى ذلك ( أن سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عني والمصير به إلى مصر طلباً للمنفعة، فعاد من ذلك شر وضرر وألححتم علي في إرساله معكم ولم تعلموا أن قضاء الله إنما جاء على خلاف تقديركم، وقيل بل المعنى سولت لكم أنفسكم أمراً خيلت لكم أنفسكم أنه سرق وما سرق) [[175]](#footnote-175)، وهكذا يصعب على النفس البشرية استيعاب الأحداث المتراكبة، لاسيما وقد اختلط خبر فقده لبنيامين ابنه بخبر استرقاقه وتداخل معه إشاعة أنه سرق، وهكذا يتمزق القلب بكل خبر يحزنه، ويعقوب عليه السلام يثق أن ابنه (بنيامين) أنه لا يسرق وليس مثله أن يتهم بالسرقة، ولا يستطيع أن يثبت ذلك، وقد صدم عندما وجد أبنائه يلقون بهذا الاتهام على أخيهم وهم أعلم الناس بحاله، فذلك ما حمله على أن قال لهم (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أي فرحتم بخبر اتهامه بالسرقة واسترقاقه عند الملك حتى يفرغ لكم قلب أبيكم، وليس ذلك بحاصل لكم، وكان حري بهم ألا يتركوه في هذه الشدة، فالواجب أن يساندوه، أو على أقل تقدير أن يدفعوا عنه هذه التهمة، ولكن الذي أحزنه قولهم هذا في حق أخيهم، وقد استبان ما في قلوبهم من عدم الحرص علي براءته وكأنه يزفون خبر اتهامه له، فضلا عن إشاعتهم لاتهامه، وهم على علم بأنه برئ منه، فهم أخوته ويعرفون أخلاقه ودينه.

قوله (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) فهو صبر مصحوب بالرجاء في الله، فلم يفقد الأمل في عودة يوسف عليه السلام، بل تجدد أمله بفقد بنيامين، وتمنى على الله أن يأتيه بهما معا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ)[[176]](#footnote-176) وكأن الدعاء هو الذي يصنع قدر المؤمن، فكل ما يتمناه على الله يجيبه ربه إليه متى كان موقنا به - والدعاء من قدر الله-، وقد أمل ألا تتجدد مصيبته في غيرهما، خاصة أن أخوهم الأكبر لا يزال في مصر ولم يرجع، فيجتمع شمل الأسرة جميعا فأجابه الله لذلك، وهكذا يكون حرص الأب الصالح على أبنائه، ولا يفرق في همه أحد منهم، فهو يهتم لأمرهم جميعا، وهكذا يكون يقين المسلم في الله، فهو يسأل الله تعالى وعنده يقين بالإجابة، وهكذا يكون الصبر جميلا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ)[[177]](#footnote-177)، فلأجل الصلة القريبة بين يعقوب عليه السلام وربه لم يرد الله دعائه ولم يخيب ظنه به، وهذا معنى صبر جميل أن مغلف باليقين بالنصر، ولو بعد ألف عام، فجمال الصبر أنه مغلف باليقين بأن قضاء الله خير، وكل ما عنده خير.

قوله (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) أي عزل نفسه عنهم من شدة الكرب الذي ألم به، وقسوة الخبر الذي سمعه، فلم يتمالك نفسه إلا أن يتحسر على فقد يوسف بعدما فقد بنيامين فضم هذه المصيبة لتلك، فلم يقدر على ذلك إلا بتلك العزلة، عن سعيد بن جبير قال: لم يعط لأحد من الأمم الاسترجاع غير هذه الأمة أما سمعت قول يعقوب (يا أسفى على يوسف)[[178]](#footnote-178).

قوله ( وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) (84) أصيب يعقوب بالغم، ولم يتمكن الصبر الذي تحلى به طوال سنوات من أن يمسك دموعه عن النزف، ولم يزيل صبره كظم قبله وقد امتلائه حزنا، فهو صبر مكدر بالحزن، (ولم يناف حزنه وبكاءه صبره فإنه عليه السلام ما شكا بثه وحزنه إلى مخلوق و إنما شكاه إلى الله)[[179]](#footnote-179)، وقد ثبت بكاء رسول الله على ابنه ابراهيم لما مات، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ غُلَامٌ فَسَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ قَالَ أَنَسٌ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ فَدَمَعَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[[180]](#footnote-180)، وفي رواية شارحة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ -الحداد- وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ – رمقه الأخير- فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ)[[181]](#footnote-181).

أما ما أصاب يعقوب في عينيه من عتامة في عدسة العينين مما أذهب بصره [[182]](#footnote-182)، فسببه أن كبير السن لا يقوى على الحزن، فأقل حزن يؤثر على ضغط العينين مع ضعف الأوردة والشرايين والشعيرات الدموية، وهو ما لا تتحمله العينين [[183]](#footnote-183)، بينما في شبابه قوى على تحمل صدمة فقد يوسف عليه السلام، أما في شيخوخته فلم يقوى على فقد بنيامين، فأقل حزن يصيب الشيخ الكبير بمرض شديد بعدما وهن العظم واشتعل الرأس شيبا، فما حصل ليعقوب عليه السلام من ابتلاء في العينين ليس معناه أن يقتدي الناس بذلك فيظلون يبكون ويحزنون حتى يفقدون أبصارهم كدليل على الرأفة والرحمة، فقليل من الحزن يكفي للدلالة على ذلك، أما ما حصل ليعقوب عليه السلام فليس معناه أنه أسرف في البكاء حتى أضر بنفسه، وإنما ما أصابه من حزن لضعف جسده لكبر سنه، فكثير الابكاء منهي عنه، فقد ورد في السنة بكاء النبي باعتدال، وأشار إلى كراهة البكاء بغير اعتدال، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ فَقَالَ قَدْ قَضَى قَالُوا لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَبَكَى النَّبِيُّ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ بَكَوْا فَقَالَ أَلَا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ أَوْ يَرْحَمُ وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ)[[184]](#footnote-184)، فالنهي محمول على البكاء الذي فيه نياحة وإسراف، ومحمول على أن الميت لم يوص أهله بعدم الإسراف في البكاء عليه [[185]](#footnote-185)

قال ابن تيمية (وَأَمَّا " الْحُزْنُ " فَلَمْ يَأْمُرْ اللَّهُ بِهِ وَلَا رَسُولُهُ بَلْ قَدْ نَهَى عَنْهُ فِي مَوَاضِعَ وَإِنْ تَعَلَّقَ بِأَمْرِ الدِّينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)، وَقَوْلُهُ (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)، وَقَوْلُهُ (إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إنَّ اللَّهَ مَعَنَا) وَقَوْلُهُ (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)، وَقَوْلُهُ (لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَجْلِبُ مَنْفَعَةً وَلَا يَدْفَعُ مَضَرَّةً فَلَا فَائِدَةَ فِيهِ وَمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ.

نَعَمْ لَا يَأْثَمُ صَاحِبُهُ إذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِحُزْنِهِ مُحَرَّمٌ كَمَا يَحْزَنُ عَلَى الْمَصَائِبِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ (إنَّ اللَّهَ لَا يُؤَاخِذُ عَلَى دَمْعِ الْعَيْنِ وَلَا عَلَى حُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُ عَلَى هَذَا أَوْ يَرْحَمُ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى لِسَانِهِ }، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ).

وَقَدْ يَقْتَرِنُ بِالْحُزْنِ مَا يُثَابُ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ وَيُحْمَدُ عَلَيْهِ فَيَكُونُ مَحْمُودًا مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ لَا مِنْ جِهَةِ الْحُزْنِ كَالْحَزِينِ عَلَى مُصِيبَةٍ فِي دِينِهِ وَعَلَى مَصَائِبِ الْمُسْلِمِينَ عُمُومًا فَهَذَا يُثَابُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ حُبِّ الْخَيْرِ وَبُغْضِ الشَّرِّ وَتَوَابِعِ ذَلِكَ.

وَلَكِنَّ الْحُزْنَ عَلَى ذَلِكَ إذَا أَفْضَى إلَى تَرْكِ مَأْمُورٍ مِنْ الصَّبْرِ وَالْجِهَادِ وَجَلْبِ مَنْفَعَةٍ وَدَفْعِ مَضَرَّةٍ نُهِيَ عَنْهُ وَإِلَّا كَانَ حَسَبَ صَاحِبِهِ رُفِعَ الْإِثْمُ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ الْحُزْنِ، وَأَمَّا إنْ أَفْضَى إلَى ضَعْفِ الْقَلْبِ وَاشْتِغَالِهِ بِهِ عَنْ فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ كَانَ مَذْمُومًا عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ وَإِنْ كَانَ مَحْمُودًا مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى)[[186]](#footnote-186).

وقوله (فَهُوَ كَظِيمٌ) وصف لحاله الجامع بين الصبر والحزن في آن واحد، (فقد شبه امتلاء قلبه بالحزن على يوسف بامتلاء القربة بالماء،وشبه صبره في أمره وتركه الشكوى لغير الله برباط ربط على فم القربة حتى لا يخرج منها الماء، وهذا معنى الكظم)[[187]](#footnote-187) عن عبيد بن عمير قال: صلى بنا عمر الخطاب صلاة الفجر فافتتح سورة يوسف فقرأها حتى إذا بلغ (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) بكى حتى انقطع فركع [[188]](#footnote-188).

ولعل الحالة النفسية التي ألمت بنبي الله يعقوب كانت نتيجة لعلمه أن يوسف عليه السلام سوف يكون نبيا، وكذلك بنيامين، ولم يكن أحد من أبنائه قد استحق هذه المكانة الشريفة، بل كانوا شرا مكانا كما وصفهم يوسف عليه السلام، ولذلك استشعر بالوحدة مع هؤلاء الأشرار، ولم يأنس بالصحبة مع هؤلاء الأنبياء المصدقين لدعوته، ولا شك أن فوات صحبة الأنبياء والتزام صحبة الأشرار يثير البكاء حتى ينتهي هذا الأمر برؤية ابنيه يوسف وبنيامين معا فيستروح بهما كما كان يستروح بهما من قبل، فظل صابرا على ذلك حتى يشاهد تلك اللحظة.

قوله (قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) (85) هي نصيحة وجوهها من بجوار يعقوب له، لكثرة ذكره يوسف عليه السلام وقد طال الزمان على فقده وغيابه لكنه لا يزال يأمل رجوعه، وقد يئس الناس من ذلك، فهو من قبيل تذكر من لا رجوع له، والحزن على ما طال الزمان على فراقه، وليس ثمة طائل من وراء ذلك إلا زيادة مرضه وتدهور حالته الصحية حتى يهلك من ذلك بلا فائدة، وهو الأمر الذي يصور مدى ما أصابه من حزن، ومدى تأثره النفسي بهذه الأحداث والأعراض وهو شيخ كبير –كما ذكر أبناءه ليوسف-، فترديده لذكر يوسف ليس من باب الشكاية، وإنما هو من باب التربص لنفاذ وعد الله تعالى والإتيان به كما بشر بذلك في الرؤيا التي رآها يوسف، فهو لا يزال موقنا بتحققها، ولكنه يجهل وقت ذلك، فهو في انتظار حتى تتحقق، ولذلك كان صبره جميله لطوله مع يقينه.

قوله (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (86) هذا هو المعنى الثاني للصبر الجميل، أي صبر بلاشكوى إلا إلى الله تعالى، كما أنه صبر مع يقين بالنصر والإجابة، فالصابر لا يشكو ولا يعجز، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا)[[189]](#footnote-189)، قال ابن القيم (المكروه الوارد على القلب ينقسِمُ باعتبار سببه إلى قمسين، فإنه إما أن يكون سببُه أمراً ماضياً، فهو يُحدِثُ الحَزَنَ، وإما أن يكون توقع أمر مستقبل، فهو يُحدِث الهم، وكلاهما مِن العجز، فإن ما مضى لا يُدفع بالحزن، بل بالرضى، والحمد، والصبر، والإيمان بالقَدَر، وقول العبد: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، وما يُستقبل لا يُدفع أيضاً بالهمِّ، بل إما أن يكون له حيلة فى دفعه، فلا يعجز عنه، وإما أن لا تكون له حيلة فى دفعه، فلا يجزع منه، ويلبسُ له لباسه، ويأخذُ له عُدته، ويتأهّبُ له أُهبته اللائقة به، ويَسْتَجِنُّ بجُنَّةٍ حصينة من التوحيد، والتوكل، والانطراح بين يدى الرب تعالى والاستسلام له والرضى به رباً فى كل شئ، ولا يرضى به رباً فيما يحب دون ما يكره، فإذا كان هكذا، لم يرضَ به رباً على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبداً على الإطلاق، فالهمُّ والحَزَنُ لا ينفَعَانِ العبد البتة، بل مضرَّتُهما أكثرُ من منفعتهما، فإنهما يُضعفان العزم، ويُوهنان القلبَ، ويحولان بينَ العبدِ وبين الاجتهاد فيما ينفعُه، ويقطعان عليه طريقَ السير، أو يُنكسانه إلى وراء، أو يَعوقَانِهِ ويَقِفَانه، أو يَحْجُبانه عن العَلَمِ الذى كلَّما رآهُ، شمَّر إليه، وجدَّ فى سيره، فهما حِمل ثقيل على ظهر السائر، بل إن عاقه الهمُّ والحزن عن شهواته وإراداته التى تضرُّهُ فى معاشه ومعاده، انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلَّط هذَيْن الجندَيْنِ على القلوب المعرضة عنه، الفارغَةِ من محبته، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والأُنسِ به، والفِرار إليه، والانقطاع إليه، ليردَّهَا بما يبتليها به من الهموم والغمومِ، والأحزانِ والآلام القلبية عن كثير من معاصيها وشهواتها المُرْدِية، وهذه القلوبُ فى سجن من الجحيم فى هذه الدار، وإن أريد بها الخيرُ، كان حظُّها من سجن الجحيم فى معادها، ولا تزال فى هذا السجن حتى تتخلَّص إلى فضاء التوحيد، والإقبال على الله، والأُنس به، وجعل محبته فى محل دبيبِ خواطِر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذِكْرُه تعالى وحُبُّه وخوفُه ورجاؤُه)[[190]](#footnote-190).

قوله (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ)(87) ألزمهم بالتماس الأسباب وعدم الانقطاع عنها، وقوله (فتحسسوا): أي اطلبوا خبرهما بلطف حتى تصلوا إلى النتيجة)[[191]](#footnote-191)، ذلك أن اللطف مطلوب في التعامل مع ما يأمر به الملك، لاسيما إذا كان المقصود ضد مراده، وذلك هو عين التوكل، مكما نصحهم بعدم اليأس من الإجابة، فالاعتماد على الأسباب شرك، واليأس من الإجابة ليس من الإسلام في شيء، قال رسول الله (يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي)[[192]](#footnote-192)، والدعاء من جملة الأسباب التي يتوصل بها إلى المراد، وفي الحديث (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز).

فقوله (وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) حض على العمل والتماس الأسباب دون الاعتماد إلا على الله، والذي ينظر ليعقوب عليه السلام يظن أنه يعاند مع نفسه، وأنه لا يصدق الواقع، وفي الحقيقة أنه بخلاف ما يظنون، فهو واقعي لأقصى درجة، ويسلم أمره إلى الله تعالى، قال ابن كثير (وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون)[[193]](#footnote-193)، وقال ابن عاشور أن ذلك (تعليل للنهي عن اليأس، والمعنى: لا تيأسوا من الظفر بيوسف - عليه السلام - معتلين بطول مدة البعد التي يبعد معها اللقاء عادة، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لها أسبابها، ومن كان يؤمن بأن الله واسع القدرة لا يحيل مثل ذلك فحقه أن يأخذ في سببه ويعتمد على الله في تيسيره، وأما القوم الكافرون بالله فهم يقتصرون على الأمور الغالبة في العادة وينكرون غيرها)[[194]](#footnote-194).

يقول الدكتور مصطفى محمود (من يقرأ التاريخ لا يدخل اليأس إلى قلبه أبدا، وسوف يرى الدنيا أياما يداولها الله بين الناس، فالأغنياء يصبحون فقراء، والفقراء ينقلبون أغنياء، وضعفاء الأمس أقوياء اليوم ن وحكام الأمس مشردو اليوم، والقضاة متهمون والغالبون مغلوبون، والفلك دوار، والحياة لا تقف.. والحوادث لا تكف عن الجريان، والناس يتبادلون الكراسي...ولا حزن يستمر..ولا فرح يدوم).

المشهد الثالث

# مفاجأة أبناء يعقوب بأخيهم يوسف وارتدادهم إلى أبيهم بتلك البشرى

قال تعالى (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (94) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (95) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (96) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (98)

قوله (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ) (88) عاد أخوة يوسف إليه مرة أخرى بصفته عزيز مصر، ومعهم أخيهم من أبيهم، وهم لا يعلمون أنه أخوهم، وقد اعتذروا له أنهم جاؤوه ببضاعة زهيدة، ولم يكن يوسف عليه السلام يقبل أن يعطي الناس المؤنة من الزاد دون أن يقابلوها ببضاعة من عندهم، وذلك حتى لا تتوقف عجلة الاقتصاد، ويعتمد الناس على المعونة دون أن يعملوا، وسألوه أن يوف إليهم الكيل ويزيدهم بما يكفي حاجتهم صدقة منه عليهم.

ولم يعتمد يوسف عليه السلامة على الدراهم في المبادلة رغم أن الدراهم كانت في زمنهم، أي (انتهج سبيل التجارة بالمقايضة كي يحدث رواجا تجاريا وفى الأسواق فلا يشعر ـأحد بحدوث أزمة اقتصادية إذا هو قام بعمل إنتاجي حقيقي لا يستغنى عن الجهد البشري ولم ينصرف عقله للنشاط الريعي المحض وهو استثمار مورد طبيعي قائم واكتفى كما الحادث لدينا الآن ندور بين حد سياسة الاقتراض والسياسة الريعية كموارد القنال وعوائد الثوابت بالتأجير للأصول او بغير ذلك من وسائل ريعية، إذا الإنتاج هو ما قام به نبي الله يوسف زمن السبع الشداد.. )[[195]](#footnote-195).

وهؤلاء أولاد نبي الله يعقوب، ولا ينبغي لأولاد الأنبياء أن يتكففوا الناس، لما ورد في الحديث عن النبي أنه قال (إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ)[[196]](#footnote-196)، (ومعنى أوساخ الناس: أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم)[[197]](#footnote-197)، فكان المعنى محمول على المجاز، أي (أنهم طلبوا منه أن يجريهم على عادتهم من المسامحة وإيفاء الكيل ونحو ذلك مما كان يفعل بهم من الكرامة وحسن الضيافة لا نفس الصدقة )[[198]](#footnote-198)، مصداق ذلك قوله (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى)[[199]](#footnote-199)، وذلك من باب التأدب مع الملك، فهو يملك تسعير السلعة بثمن غالي، وله أن يرد بضاعتهم إذا لم تحتج لتصريفها، فسألوه الصدقة – مجازا - من باب تكرم منه الفضل، وهو أهل لذلك.

قوله (قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ) (89) قوله هذا هو تحقق البشرى التي بشر بها وهو في البئر (لتنبأهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون)، وقد تحققت إذ أنبأهم بما فعلوه به، وهم لا يشعرون أنه هو لأول وهلة، ونسب أفعالهم هذه لأخلاق الجاهلية، لإحسان ظنه بهم وأنهم قد تابوا بعد مرور كثير من الوقت، وأنهم غير متلبسين بهذه الأخلاق الآن، وكانوا متلبيسن بها حالما فعلوا جريمتهم، ووصفهم بذلك يعني أنهم كانوا يجهلون أن الله لا يهدي كيد الخائنين، وأنه من يتق ويصبر فإن االله لا يضيع أجره، ولو كانوا يعلمون ذلك ما أقدموا على ما فعلوه.

قوله (قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (90) علموا أنه يوسف لما كشف لهم السر الذين يخفونه طوال هذه السنوات، وكشف لهم خدعته لهم، فأظهر أخيه من أبيهم لهم، بعدما احتجزه عنه ليستجوبه ويسأله عن أحوال أخوته، ولعله أجابه بما أراح قلبه،وأنه لم يمسه سوء منهم، فعفا عنهم، وحدثهم عن نعمة ربه عليه، وأما بنعمة ربك فحدث.

قوله (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) قال ابن عاشور (هذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة، وهي فرصة تأثر السامع وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته)[[200]](#footnote-200)، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ (عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ)[[201]](#footnote-201)، وروي أن الحاسد لا يضر بحسده إلا نفسه، وإن المحسود إذا صبر، نجاه الله بصبره)[[202]](#footnote-202)، قال الشيخ نايف (أنه - تبارك و تعالى - قرن الصبر بمقامات الإيمان وأركان الإسلام وقيم الإسلام ومثله العليا، فقرنه بالصلاة ((واستعينوا بالصبر والصلاة)) وقرنه بالأعمال الصالحة عموماً ((إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات))، وجعله قرين التقوى ((إنه من يتق ويصبر))، وقرين الشكر ((إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور))، وقرين الحق ((وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر))، وقرين المرحمة ((وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة))، وقرين اليقين ((لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون))، وقرين التوكل ((نعم أجر العاملين))، ((الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون))، وقرين التسبيح والاستغفار ((فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار))، وقرنه بالجهاد ((ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)[[203]](#footnote-203)، ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني يوصي الناس بهذين الأصلين: المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحظور والصبر والرضا بالأمر المقدور [[204]](#footnote-204)، قَالَ القشيري:"مَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّ الرِّضَا فَلْيَلْزَمْ مَا جَعَلَ اللَّهُ رِضَاهُ فِيهِ"[[205]](#footnote-205)، وقال أبو سليمان "إذَا سَلَا الْعَبْدُ عَنْ الشَّهَوَاتِ فَهُوَ رَاضٍ"، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ إنَّمَا يَمْنَعُهُ مِنْ الرِّضَا وَالْقَنَاعَةِ طَلَبُ نَفْسِهِ لِفُضُولِ شَهَوَاتِهَا، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ سَخَطَ، فَإِذَا سَلَا عَنْ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ الرِّزْقِ)[[206]](#footnote-206).

قوله (قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ) (91) هكذا يرد الله تعالى نفس الحاسد إلى الاعتراف بفضله تعالى على المحسود، وأن الحاسد مخطئ في حسده له على نعمة ربه عليه، قال سبحانه (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف/32)، فحسابات الحاسد دوما مخطئة، ولم يكن ظنه مصيبا فيما يحسب أو يحسد.

قوله (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (92) قال رسول الله (مَنْ كَظَمَ غَيظاً، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ)[[207]](#footnote-207)، هذه الروح التي ملكها يوسف عليه السلام وهذا التسامح والصفح ليدل على أن قلبه قد امتلأ حبا بالله تعالى، وليس في قلبه ضعف ينغص عليه عيشه، حتى أنه لم يعاتبهم ولم يثرب عليهم، واكتفى بقوله (يغفر الله لكم)، فلطالما نغص حب الانتقام والثأر سعادة القلب، ومهجة الفؤاد، ولطالما زاد العفو المرء حسنا، يقول رسول الله (وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا)[[208]](#footnote-208)

والقصاص ضد العفو، ويختلف الحض على أحدهما بحسب محل الحق المعتدى عليه، فإذا كان حقا لله خالصا أو غالبا فلا صفح ولا عفو ولا الإبراء، وحقوق الله تعرف بحقوق الضعفاء كالفقراء والمساكين، فلا يجوز مساحمة الظالم إذا تعدى عليهم، إلا أن يصدر العفو عنهم، شريطة أن يكون عن إرادة حرة، فإن إظهار الرحمة للظالم ظلم للمظلموم، فهو سبحانه يدافع عن الفقراء والمحتاجين والضعفاء، ولذلك فإنه يشترط لصحة العفو أن يكون عند المقدرة، لأن غير القادر إذا عفى ففي عفوه شبهة الخوف من بطش الظالم وتملك شعور الاستضعاف منه، ومن يعتدي علي حقوقهم فإنما يعتدي على حق الله تعالى، والظالم الذي يفعل ذلك لا تجوز مسامحته لأنه عند مسامحته يأمن الردع في كل جريمة يفعلها، ويتجرأ على التمادي حتى يصل إلى الطغيان، وإن كان القصاص لحق نفسه فله أن يرحم ويصفح، قال تعالى (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ)(البقرة/178)، وهو ما افعله يوسف عليه السلام بأن أسقط حق نفسه بالتنازل عن القصاص منهم، فهو حق له خالص، وليس ثمة شبهة في أنه مستضعف حتى تبطل إرادته في العفو.

قوله (اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) (93) هذه بشرى بشر بها يوسف عليه السلام أبيه، وقد علم بأنه عندئذ يرتد إليه بصره، وهذا أمر غير معقول المعنى، فقوله (فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً)، يدل على أنه علم أنه عمى من الحزن، إما بإعلامهم، وإما بوحي، وقوله (يأت بصيراً)، يظهر أنه بوحي)[[209]](#footnote-209)، ولعله ظن أن ذلك يسعده، وعلم أن حزنه هو سبب غشاية بصره، وبسروره قد يرتد إليه بصره، وهو ما يسميه العلم الحديث بالعمى النفسي، ولا أعلم بشرى أسعد لصاحبها من تلك، فبمجرد أن اشتم رائحة يوسف من قميصه إلا وزال كل هم وغم دخل قلبه، وحل محله الفرح والسرور، وانشرح صدره وابتهجت أساريره، حتى شفي من العمى وأبصر بعد أن كان ضريرا، وهكذا تؤثر الحالة المعنوية في الإنسان، وكذلك يتجلى تأثير البشرى الصادقة في تلك الحالة، فينقلب من حال إلى حال، ولذلك يقول النبي (قَالَ بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا)[[210]](#footnote-210).

ثم أمرهم (وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ)، فقد اشتاق لأن يصل رحمه، وهو في مكان ويتعذر عليه أن يترك حاجة الناس له ويذهب لأهله، فهو مسئول عن كفايتهم المؤنة، فكان في جمعهم عنده تحقيق للمصلحتين.

قوله (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ) (94) قوله (قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) (95) أي لما خرجت القافلة من مصر منطلقة إلى الشام وجد يعقوب عليه السلام ريح يوسف، قال أبو حيان (وهكذا تتبين الغرابة في أنْ وجد يعقوب ريحه من بعد، ولو كان من قمص الجنة ما كان في ذلك غرابة ولوجده كل أحد) [[211]](#footnote-211)، واللفظ مجازي أي أحس بقلبه قدوم علامة تدل على يوسف وهي ريحه، فلما أفصح عن إحساسه خشي أن يعيبوا عليه الإكثار من تذكيرهم بهذه البشارة، فلعله كان يكثر من ذكر يوسف، والحديث عن رجوعه، فقوله (أجد ريح يوسف) ليس بأول مرة يقولها لمن معه، ولعلهم في كل مرة يتهمونه بالخرف والضلال، حيث لا يزال يأمل رجوع المفقود من سنوات كثيرة، ولذلك قال (لولا أن تفندون) أي تظنون أنني أصبت بذلك، فأكد المخاطبون له ممن برفقته أنه بين الحين والآخر يتذكر يوسف، وقد رجع مرة أخرى لتذكره بقوله (أجد ريح يوسف) – فالضرير لابد له من صاحب لاسيما مع سفر أولاده – فلما وجدوه لم يعدم من الأمل، ذكروه بأن ذلك ليس بأول ولا آخر مرة يأمل رجوع الغائب، فذلك معتاد منه، وقد يئسوا من بشراه، حيث لا دليل على وجود أمل فيها، لكنها البشرى لا تزال تملأ قلبه، فعن عبد الله قال: من أحب القرآن فليبشر [[212]](#footnote-212)

وهكذا قلب المؤمن يظل معلقا بالله، ويظل مستبشرا، ويظل متربصا النصر الذي وعده الله به، ولا يخيب ظنه في الله أبدا، وإن تأخر لأعوام وسنوات، فإنه لا يزال مستبشرا، ولا يأبه بكلام الناس، ولا ظنونهم، فيكفيه حسن الظن بالله، وإن كان يخجل أحيانا من ذكر هذه البشارة لمن لا يؤمن بها، فإنه لا يخجل أن يمني بها نفسه كلما طال الوقت وقصر الأمل.

قوله (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (96) هذه حقا معجزة أن يرتد إليه بصره بمجرد إلقاء قميص يوسف على يعقوب عليه السلام، لا مجاز فيها ولا تأويل، لكن الآية عللت هذه المعجزة بقدوم البشرى، وهكذا تصنع البشرى في قلب المؤمن، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ قَالَ (بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا)[[213]](#footnote-213)، قال المناوي (بشروا) بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته وشمول عفوه ومغفرته من التبشير وهو إدخال السرور، والبشارة الإخبار بخبر سار، وقوله "بشروا" أردفه بقوله (ولا تنفروا) وهو من التنفير أي لا تذكروا شيئا تنهزمون منه ولا تصدروا بما فيه الشدة وقابل به بشروا مع أن ضد البشارة النذارة لأن القصد من النذارة التنفير فصرح بالمقصود منها، ومن جعل معنى "يسروا" اصرفوا وجوه الناس إلى الله في الرغبة فيما عنده وردوه في طلب الحوائج إليه ودلوهم في كل أحوالهم، ومعنى لا تعسروا لا تردوهم إلى الناس في طلب ما يحتاجونه)[[214]](#footnote-214)، ولا تزال هذه الأمة تستبشر بالخير حتى بعد وفاته ، قال رسول الله (ذَهَبَتْ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتْ الْمُبَشِّرَاتُ)[[215]](#footnote-215).

قوله (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) (97) بعد ظهرت هذه المعجزة زاد انبهار أخوة يوسف بالأحداث، فلا يكادون يصدقون ما تراه أعينهم، يوسف حي وتبوأ ملك مصر، وأبيهم ارتد إليه بصره، فليس شيء يمكن أن يدور بخلده بعد ذلك إلا التوبة من ذنوبهم والتحلل منها وطلب الاستغفار من أبيهم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ)[[216]](#footnote-216).

قوله (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (98) وعد بإجابتهم بأنه سوف يدعو الله تعالى أن يغفر لهم، لكنه سوَّف بالدعاء، أي أنه أجَّل الاستغفار وعلقه على شرط مستقبل، قيل أجل حلول الليل، ليكون أجمع في الدعاء، لكن هذا مستبعد، فالتوبة لا تؤجل، وإنما أراد أن يغفر لهم ذلك بعدما يتأكد أنه يوسف عليه السلام غفر لهم ظلمهم له، فهو لا يملك أن يغفر لهم ظلمهم لأخيهم دون أن يسبقه هو بالمغفرة لهم، ثم أتبع ذلك بتذكيرهم برحمة الله وعفوه (إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) ليعلموا أنهم إذا ما تحللوا من ذنوبهم بمسامحة يوسف وعفوه بقي عليهم ذنب متعلق بحق الله تعالى، وهو الإخلال بالأمن الاجتماعي، ولذلك فإن سوف يستغفر لهم الله شريطة أن يتوبوا عن فعل ذلك، ويندموا على ما فعلوا، فيكونون صادقين في توبتهم، وهذا ما جعله يؤجل الاستغفار لهم لأجل هاتين العلتين.

المشهد الرابع

# اجتماع شمل الأسرة وتحقق نبوءة يوسف

قال تعالى (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ (99) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (101)

قوله (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آَوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) الإيواء يشعر بالحنين الشديد للوطن والأهل والشعور بالأمان والإحسان والطمأنينة، ونبذ الأفكار السلبية، واستقرار الفؤاد، وانشراح الصدر للقادم، فهو معنى يدل على جمال هذه المشاعر لاسيما إذا كانت صادرة عن أبوين تجاه ابنيهما، فيكون هذا الابن جديرا بالبر لهما، وهذا هو واجب كل ابن تجاه والديه أن يشعره بالإيواء إليه، فكم من ابن مقصر في حرمان أبويه هذا الشعور، فقد جاء الوقت الذي يحن فيه الأبوين لابنيهما، فيحتضنهما بيديه ويؤمنهما من الخوف كما كانا يفعلان ذلك له وهو صغير.

قوله ( وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ) (99) تضمن ترحبا لقدومهم، وقد استطاع يوسف أن يتحدث بنعمة الله عليه أن مكنه من أن يكون سببا في حفظ الأمن بمصر، فلا يعتدي أحد على غيره رغم ما تمر به البلاد من محنة الجدب وقلة الزاد، لكن الناس يشعرون بالأمان، ويأتونه ليتمولوا بالزاد ويقدموا ما معهم من بضاعة، وهكذا تسير الحياة الاقتصادية بشكل ينعكس على الجانب الاجتماعي بالإيجابية، ومن ثم ينعم المواطنون جميعا بالاستقرار الأمني، (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)، وهما عاملان للجذب السياحي في أي دولة، وعلامة على سيرها في الاتجاه الصحيح نحو الرخاء والرفاية الاقتصادية.

قوله (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ) وهذا من باب الإكرام لوالديه، والأبوين المقصود بهما الأب والأم، وقيل يدخل في ذات المعنى العم والخالة، هذا جائز مجازا، ولعل المعنى الحقيقي هو المقصود، بصرف النظر عما سيق من إسرائيليات غير ثابتة، والتكريم في هذا الموقف له دلالة على فضلهما عليه حتى تبوأ هذه المكانة، فالابن يسعد بدعاء والديه له، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ لَا شَكَّ فِيهِنَّ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ)[[217]](#footnote-217)، ولا شك أن دعاء أبويه له لم يكن محله تحقيق نتيجة، ولكن دوما يدعو بأن يوفقه الله لكل خير، فهو أعلم بما لا نعلم، ولذلك كان من جملة دعاء الرسول (الرضا بعد القضاء)، فعَن زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَهُ دُعَاءً وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَعَاهَدَ بِهِ أَهْلَهُ كُلَّ يَوْمٍ قَالَ قُلْ كُلَّ يَوْمٍ حِينَ تُصْبِحُ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ وَمِنْكَ وَبِكَ وَإِلَيْكَ اللَّهُمَّ مَا قُلْتُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ نَذَرْتُ مِنْ نَذْرٍ أَوْ حَلَفْتُ مِنْ حَلِفٍ فَمَشِيئَتُكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا شِئْتَ كَانَ وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اللَّهُمَّ وَمَا صَلَّيْتُ مِنْ صَلَاةٍ فَعَلَى مَنْ صَلَّيْتَ وَمَا لَعَنْتُ مِنْ لَعْنَةٍ فَعَلَى مَنْ لَعَنْتَ إِنَّكَ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَمَاتِ وَلَذَّةَ نَظَرٍ إِلَى وَجْهِكَ وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَعْتَدِيَ أَوْ يُعْتَدَى عَلَيَّ أَوْ أَكْتَسِبَ خَطِيئَةً مُحْبِطَةً أَوْ ذَنْبًا لَا يُغْفَرُ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَإِنِّي أَعْهَدُ إِلَيْكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأُشْهِدُكَ وَكَفَى بِكَ شَهِيدًا أَنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَكَ الْمُلْكُ وَلَكَ الْحَمْدُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[[218]](#footnote-218).

قوله ( وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) كناية عن الخضوع لحكمه وطاعته، لا سجود عبادة[[219]](#footnote-219)، أجمع المفسرون على ذلك [[220]](#footnote-220)، فطاعة ولي الأمر من طاعة الله، فالمراد المعنى المجازي لا الحقيقي، ولم تبين الآية كيفية حصول ذلك، ولا شك أن القدر المنهي عنه في شرعنا منهي عنه في شرع من قبلنا، لأن السجود من أصول الاعتقاد، ولا يقبل النسخ أو التبديل بين الشرائع، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنْ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ قَالَ مَا هَذَا يَا مُعَاذُ قَالَ أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ فَلَا تَفْعَلُوا فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ)[[221]](#footnote-221)، حتى لو كان السجود بمجرد انحناء الجزء العلوي من الجسد بقصد التحية فغير جائز لما روي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيَنْحَنِي لَهُ قَالَ لَا قَالَ أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ قَالَ لَا قَالَ أَفَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ قَالَ نَعَمْ)[[222]](#footnote-222)، أما إمالة الرأس من باب التحية، فلم يرد فيها نص، لاسيما وأن الانحناء يكون بفقرات الظهر، أما بمجرد إمالة الرأس قليلا للأمام ففيه خلاف فقهي، ولعل تلك هي هيئة السجود التي كانت في شريعة يعقوب عليه السلام من باب التحية والإكرام.

قوله (وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا) عن سلمان رضي الله عنه قال (كان رؤيا يوسف و تأويلها أربعون سنة)[[223]](#footnote-223)، فهو صبر جميل أن يتحمل يعقوب ويوسف عليهما السلام كل هذا القدر من الزمان حتى تتحقق رؤياه وتكون حقا، هكذا لا ينقطع الأمل في الله، وتكون الثقة فيه وحده، والجميل في ذلك الرضى، فالمتأمل في هذه الأحداث يجد أن صبر يعقوب هذه السنوات قد كوفئ بأن رأي يوسف وكاد يكون حرضا وقبل أن يهلك، فهل تحقق الرضا له بذلك، أم أنه قد رضي من قبل ذلك، وبذلك وصف صبره بأنه جميل، فإذا كان هذا هو شأنه، فما الفائدة من تحقق الرؤيا وقد رضي بقدر الله قبل أن تتحقق، وما العبرة من تحقق النصر، وقد رضي يعقوب كل هذه السنوات بفقد يوسف عليه السلام، إن تحقق النصر بعد تلكم السنوات هو ما يجعل المؤمن يصبر ليس انتظارا لتحققها،ولكن يصبر لعلمه أن الله حكيم في تأخير النصر إلى هذا الحين، فهو راضي بقضاء الله وقدره في وقت الحرمان، وذات الرضا يستشعره في وقت العطاء، لا ينقص ولا يزيد، كل ما في الأمر أنه يستمتع بالرضا بالبلاء فلا يجزع ولا يشكوي لغير الله، كما أنه يستمتع بالرضا بالنعمة فلا يفخر ولا يرائي بها ولا يستعلي بها على عباد الله، فمن أركان الإيمان (الإيمان بالقدر خيره وشره) بمعنى التسليم المطلق له.

قوله (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (100) بدأ في حكاية قصته وهذا لطول الغياب، وحاكته لأن يحكي لهم ما مضىى من حياته وما ألم به من مصائب وفضل الله عليه في كل ذلك، فاختصر الحكاية في ثلاثة أحداث رئيسية هي التي شكلت حياته التي هو عليها الآن، ابتداءا من تمكن الشيطان من أخوته ليكيدوا له كيدا، ومرورا بمحنة السجن التي طالت لسنوات، حتى تحققت البشرى وانتقل أهله من عيشة البدو القاسية إلى رخاء الحضر في مصر والتنعم بزراعتها، كناية إلى أن النصر مع الصبر، وأنه مهما ضاقت حلقات المحن فرجت في الأجل الذي يحدده الله لذلك، وقد أخر الحديث عما حادثة الكيد له من باب التكرم على أخوته، فذكرها في آخر الخطاب لأنه لا يريد التثريب عليهم ولا عتابهم على ذلك بعد أن صفح عنهم.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نعلق على هذه الأحداث الثلاث على النحو التالي: -

أولا: قوله سبحانه (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) حيث طالت المحنة، ولاشك أن الخلوة مع الله تعالى شيء عظيم، حتى لو قضى المسلم عمره كله في السجن، بيد أن البشر لهم طاقات وقدرات، والسجن يخبت هذه الطاقات، ويضعف القدرات، فكما ذكرنا أن النشاط العقلي في الذهن أقل من الذي هو خارج السجن، ومن ثم يبتلي المسجون بالنسيان كثيرا، وكذلك النشاط العضلي، وهكذا يتأثر الجسد نفسيا وصحيا وعقليا سلبا بالسجن، ولذلك ترى الأسد في الغابة مرعب، بل إن صوته مسموح من مسافة أميال فيرعب الكائنات، بينما هو في القفص أشبه بالقط الكبير، حيث تخور قواه ويألف الضعف، وقد كان من قبل يجري لمسافات وسرعات هائلة، فأنى له ذلك بعد الحبس، لا شك أن السجن يضعف الملكات، وقدرة الإنسان على العطاء خارج السجن أكبر بكثير من داخل السجن، فنبي الله يوسف عليه السلام فسر رؤيا الملك وهو داخل السجن، لكنه لما خرج منها عمل على تحقيقها، واستطاع بفضل الله تعالى أن يزيد الانتاج الزراعي سبع سنوات ليستقبل بعدها سبع عجاف، وهكذا استشعر يوسف عليه السلام فضل الله العظيم عليه لما خرج من السجن، فهي نعمة لا يدركها إلا من حرم من حريته ظلما وزروا.

ثانيا: قوله سبحانه (وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) إذ يغلب علي سلوك البدويين الفظاظة والغلظة في المعاملة، قال رسول الله (إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الْإِبِلِ)[[224]](#footnote-224)، (الفدادون بالتشديد: الذين تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم، واحدهم: فداد)[[225]](#footnote-225)، وقيل: وقيل إنما سموا الفدادين من أجل الفدافد وهي الصحاري والبوادي الخالية[[226]](#footnote-226)، وأهلها أهل جفاء وقسوة لبعدهم عن الأمصار [[227]](#footnote-227)، وقال (الْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ)، فالإبل ترعى في الصحراء وتأكل الشوك، والغنم ترعى في الزراعة، شتان بين البيئة الصحراوية والبيئة الزراعية في تشكيل طباع البشر، وفي رواية (وَالْفَخْرُ وَالرِّيَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْخَيْلِ وَالْوَبَرِ)[[228]](#footnote-228)، يريد بالوبر الإبل[[229]](#footnote-229).

وهكذا يؤكد القرآن صحة النظرية الجنائية التي تجعل للبيئة تأثرا في السلوك الإجرامي مع بعض التحفظ، فالمجرم يتخذ وسائل معينة لارتكاب جريمته قد يكون مصدرها ثقافته عاداته بيئته، فإلقاء يوسف في البئر شديد القسوة ويدل على عدم المبالاة، وألا التردد في الجناية، بل أن مرتكبيها لا يشعرون بالندم ولا نية لديهم للعدول والرجوع إلي المجني عليه لإصلاح ما اقترفته أيديهم وإنقاذه، حيث كان في الوقت متسع لفعل ذلك، فهي جريمة ليس وليدة غضب طارئ، وليست عن أهمال ورعونة، وإنما جاءت بعد تدبير وكيد ومكر وخديعة، وقسوة وجفاء في معاملة يوسف، وقلب غليظ لم يلن بعد ارتكاب هذه الجريمة لحظة ليذهب أحدهم لإنقاذه، ولاشك أن البيئة البدوية تمثل تلك الدوافع النفسية لاقتراف الجريمة على هذا النحو، وهي عوامل قوية لتحفيز الجاني على الإقدام على جريمته، ولكن الإسلام يثبط هذا السلوك الإجرامي، فأخوة يوسف أرادوا قتله، ولكن الإسلام جعلهم يعدلون عن هذه الفكرة إلى فكرة أقل ضرر وهي إلقائه في البئر، وهكذا يتنازع الإنسان داعي الخير في قلبه مع دواعي الشر المحيطة به سواء كان مصدرها الشيطان أو أن الشيطان زينها له، أي البيئة المحيطة به على وجه العموم.

ثالثا: قوله سبحانه (مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) قدم نفسه قبل أخوته في ذكر تحريش الشيطان بينهما، من باب التكرم عليهم مرة أخرى وحرصا على ألا يثرب عليهم، ليوهم السامع أن ما حصل كان نتيجة لضعف الطرفين لوساوس الشيطان، وكأنه يلوم نفسه أنه لو استطاع أن يتلطف مع أخوته لصاروا بدلا من أعدائه أولياء، لكنه ولصغر سنه في تلك الحادثة لم يتمكن من ذلك، قال رسول الله (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ)[[230]](#footnote-230)، وقد نزغ الشيطان بين صحابة رسول الله فوقعت الفتنة بعد مقتل عمر بن الخطاب واستمرت حتى زمن معاوية بن سفيان، بل إن خير صحابيين تشاجرا، ولكن الإسلام أصلح بينهما، ففي الحديث عن أبي الدرداء يَقُولُ (كَانَتْ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مُحَاوَرَةٌ فَأَغْضَبَ أَبُو بَكْرٍ عُمَرَ فَانْصَرَفَ عَنْهُ عُمَرُ مُغْضَبًا فَاتَّبَعَهُ أَبُو بَكْرٍ يَسْأَلُهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ فَلَمْ يَفْعَلْ حَتَّى أَغْلَقَ بَابَهُ فِي وَجْهِهِ فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ عِنْدَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَمَّا صَاحِبُكُمْ هَذَا فَقَدْ غَامَرَ قَالَ وَنَدِمَ عُمَرُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ فَأَقْبَلَ حَتَّى سَلَّمَ وَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ وَقَصَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ الْخَبَرَ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُونَ لِي صَاحِبِي إِنِّي قُلْتُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا فَقُلْتُمْ كَذَبْتَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقْتَ) [[231]](#footnote-231).

قوله (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (واللطيف يعني أن الله ييسر للعباد أمورهم ويستجيب دعائهم فهو المحسن إليهم في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، فنعمه عليهم سابغة ظاهرة لا يحصيها العادُّون ولا ينكرها إلا الجاحدون، وهو الذي يرزقهم بفضله من حيث لا يحتسبون)[[232]](#footnote-232)، فالعبد مهما حرص على مصلحته، فإن الله تعالى لطيف به حيث يشاء، وقد وجد يوسف اللطف في النفي عن أهله، والسجن بعيدا عن فتنة النساء، وما آليه إليه أمره من تبوأ عرش مصر، فقد لطف الله بيوسف عليه السلام فجعل أخوته يلقونه في البئر بدلا من أن يقتلوه، ولطف به لما راودته النسوة فجعل السجن خير له من مراودتهم له، ولطف به لما مكث في السجن بضع سنين بدلا من أن يلقى مصيرا مماثلا لمن أكلت الطير من رأسه، وهكذا يلطف الله بعباده من حيث لا يشعرون،و يرزقهم من حيث لا يحتسبون، حيث كان مملوكا فأصبح ملكا.

قوله (رَبِّ قَدْ آَتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) (101) توجه يوسف إلى ربه بالشكر والدعاء، وهكذا هو خلق المسلم مع ربه حين يمن عليه بفضله ونعمه العظيمة، فيزداد شكرا وحمدا، قال تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/7)، وهكذا يضع يوسف عليه السلام تعريفا عمليا لمعنى الولاية، وكيف أن الله تولاه وهو في البئر وتولاه وهو في السجن وتولاه وهو يعالج المشكلة الاقتصادية في مصر، فولاية الله تعني أن الله تعالى يضع في قلب عبده رضا بقضائه وقدره دون نظر إلى النتائج، فكله خير، رضا بخير القضاء وشره، وتفويض الأمر لله، تلك هي ولاية الله لعبده، وكما أرضاه في الدنيا فإنه سبحانه يرضيه في الآخرة، ولذلك جاء ختام دعاء يوسف (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) فبعد ما مر يوسف عليه السلام في حياته بكثير من المحن، ثم تبوأ ملك مصر لم يكن نصب عينيه أن يظل على هذا الحال من الملك والتنعم بهذا النعيم الدنيوي،وإنما شغله أمر آخر، وكذا كان دعاء الرسول ، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: يَا وَلِيَّ الإِسْلاَمِ وَأَهْلِهِ، مَسْكَنِي بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ بِهِ)[[233]](#footnote-233)، ولاشك أن يوسف عليه السلام بعدما أقر بفضل ربه عليه، وقد تجاوز من المحن ما لم يتجاوزه غيره، فإنه سأل الله السلامة، وخير ضمان لذلك أن يقبض وهو على هذا الحال من الصلاح والخير، فيثبته الله حتى يلقى هذا المصير، فمن جملة دعاء النبي قوله (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ وَإِذَا أَرَدْتَ بِعِبَادِكَ فِتْنَةً فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مَفْتُونٍ)[[234]](#footnote-234)، وقد وفق الله نبيه يوسف إلى فعل الخيرات بالعفو عن أخوته، وترك المنكرات بالإعراض عن امرأة العزيز، وحب المساكين بإطعامهم وتجهيزهم بالزاد، ولم يتبق إلا أن يدعو الله بأن يقبضه غير مفتون، وكنى عن ذلك بقوله (ألحقني بالصالحين)، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَالَ (لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ وَثِقَ بِعَمَلِهِ فَإِنَّهُ إِنْ مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا)[[235]](#footnote-235)، وعن عمر بن عبد العزيز أن ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للموت فقال: صنع الله على يديك خيراً كثيراً أحييت سنناً وأمت بدعاً، وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقر الله عينه وجمع له أمره قال توفني مسلماً وألحقني بالصالحين[[236]](#footnote-236).

# خاتمة سورة يوسف

قال تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (102) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (103) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (104) وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (107) قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (108) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (109) حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (110) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (111)

قوله (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) (102) فالتمالؤ على الجريمة يوجب تشديد العقوبة، فلو اتفق الجميع على قتل واحد والذي نفذ القتل أحدهم حوسب الجميع على ذات النتيجة الإجرامية، وذلك لأنه لولا تمالئهم على ذلك لما تجرأ المنفذ على ارتكاب الركن المادي للجريمة، قال ابن قدامة (ويقتل الجماعة بالواحد ولا عبرة للتساوي بينهم في سبب القتل، وجملته أن الجماعة إذا قتلوا واحدا فعلى كل واحد منهم القصاص إذا كان كل واحد منهم لو انفرد بفعله وجب عليه القصاص)، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ (قَتَلَ نَفَرًا خَمْسَةً أَوْ سَبْعَةً بِرَجُلٍ وَاحِدٍ قَتَلُوهُ قَتْلَ غِيلَةٍ وَقَالَ عُمَرُ لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا).

قوله (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (103) الغرض من هذه الآية تصبير النبي على أهل مكة وأهل الكتاب، وذلك حتى لا يستعجل إيمانهم، فكما أن نبي الله يعقوب لم يفتأ يذكر يوسف أربعين سنة تقريبا حتى تحققت أمنيته، فكذلك النبي محمد لا يستجعل إيمانهم، قال الواحدي (كان رسول الله يرجو أن تؤمن به قريش واليهود لمَّا سألوه عن قصَّة يوسف، فشرحها لهم فخالفوا ظنَّه، فقال الله (وما أكثر الناس ولو حرصت) على إيمانهم (بمؤمنين) لأنَّك لا تهدي مَنْ أحببت، لكنَّ الله يهدي مَنْ يشاء).

(وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشكور) [سبأ: 13]،

قوله (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (104) فكما أن يوسف عليه السلام لم يطلب أجر لوظيفته، رغم أنه مكن على خزائن الأرض، وكانت غايته إصلاح الخلل الاقتصادي واحتواء الأزمة الاقتصادية التي ستمر بها البلاد، فكذلك كانت غاية النبي محمد، فهو لا يطلب من دعوته إلا ما يحقق الخير والرخاء لأمته، وأنه لا يبتغي في ذلك مصلحة مادية لنفسه، وإنما هو مصلح لهم ما فسد في الدنيا، ويصلح لهم سعيه للآخرة.

قوله (وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (105) ففي كل لحظة يعيشها الإنسان يرى آية من آيات الله في السماوات والأرض، تلك الآية دليل على الله، الله مسبب الأسباب، الله خالق الأسباب، الله مفعلها ومعطلها، لكن الناس ينصرفون بهذه الآية عن المسبب ويتمسكون بالسبب، يعرضون عن الله الخالق ويلجأون للمخلوق، فأنى لهم ذلك.

قوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (106) عن ابن عباس قال - في الآية – (سلهم من خلقهم، ومن خلق السموات والأرض؟؟... فيقولون: الله. فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره)، وعن الحسن - رضي الله عنه - قال –في الآية- (ذاك المنافق، يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله)، وعن معقل بن يسار يقول: انطلقت مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى النبي فقال يا أبا بكر للشرك فيكم أخفى من دبيب النمل فقال أبو بكر وهل الشرك إلا من جعل مع الله الها آخر قال النبي والذي نفسي بيده للشرك أخفى من دبيب النمل ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره قال قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم)، قال المناوي (لأنهم ينظرون إلى الأسباب كالمطر غافلين عن المسبب ومن وقف مع الأسباب فقد اتخذ من دونه ولياً)، وقال ابن عجيبة (لا ينجو من الشرك الخفي إلا أهل التوحيد الخاص، وهم الذين غابوا عن الأكوان جملةً بشهود المكون، قد سقط من نظرهم وجود الأغيار، وتطهرت سرائرهم من لوث الأكدار، ولم يبق في مشهدهم إلا الواحد القهار، فلم يعتمدوا على الوسائط والأسباب، برؤية مسبب الأسباب، ولم يركنوا إلى العشائر والأصحاب، فإن التفتوا إلى غيره، غفلةً، أدبهم، وردهم إلى حضرته، هذا شأنهم معه أبداً، جعلنا الله منهم، وخرطنا في سلكهم آمين)، وفي الآية تعريض بأخوة يوسف عليه السلام، فقد أوصاهم أبيهم بالموت على الإسلام، ولا يزالون يستغفرون الله مما اقترفوه من ذنب في حق يوسف عليه السلام، بيد أن جريمتهم التي تلبسوا بها كانت دليل على أن إيمانهم قد شابه شيء من الشرك بالله، فالحسد وإن داخل القلب فإنه لا يحمل صاحبه على القتل إلا إذا ما تمكن من إفساده بالشرك، حيث يظن في نفسه أنه خير من المخلوق، وأن الله تعالى خلقه وليس بمستحق للحياة، فأراد أن يخالف حق الله تعالى في الخلق والإحياء، مثل النمود قال (أنا أحيي وأميت) كهذا القاتل إذا عزم القتل فإنه يحارب الله تعالى في صفاته، ومن جهة أخرى تعرض الآية بالقليل من عباد الله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، حيث آمن يعقوب عليه السلام وتوكل على الله ووثق فيه وظل يلتمس البشرى الذي بشر بها حتى وفاه الله إياها، وكذلك يوسف عليه السلام لم ييأس ولم يقنط وتجاوز العديد من المحن حتى صارت إلى منح تبوأ بعدها ملك مصر.

قوله (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (107) الركون إلى الدنيا والتمسك بالأسباب والإعراض عن مسبب الأسباب يجعل المخلوق في غفلة من إدراك حاله مع الله، وكيف أنه بمخاصمته لله تعالى لا يشعر بدنو محاسبته على ذلك، وما ذاك منه إلا لأنه اطمأن بها، قال سبحانه (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آَيَاتِنَا غَافِلُونَ) (يونس/7)، هذا هو وصفهم الدقيق، وتلك هي المصيبة أن يأخذهم الله تعالى وهم في تلك الغفلة، (أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (يونس/8) فليس بعد حلول أجلهم في الدنيا غير المصير الأخروي.

قوله (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (108) قال ابن عطية (إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها، والمعنى: هذا أمري وسنتي ومنهاجي)، فطريق الحق واضح لا لبس فيه ولا خفاء ولا اعوجاج ولا مواربة، هو طريق ظاهر بين للعيان، طريق أساسه عمل القلب، بأن يكون يقين بالله وأمله في الله وتعلقه بالله، وليس ثمة شيء من الأسباب والأعراض الدنيوية يشغله عن الله، وأي طريق غير ذلك فليس هو الإسلام، والنبي قدوة والأنبياء جميعا سيرتهم أسوة لنا، نتعلم منها اليقين بالله، والتوكل عليه، والثقة فيه، والاستعانة به، فمن اتبعهم في ذلك فقد نجا وأفلح وهدي إلى الله.

قال ابن القيم (وسواء كان المعنى انا ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة أو كان الوقف عند قوله ادعو إلى الله ثم يبتدئ على بصيرة انا ومن اتبعني فالقولان متلازمان فإنه امره سبحانه أن يخبر أن سبيله الدعوة إلى الله فمن دعا إلى الله تعالى فهو على سبيل رسوله وهو على بصيرة وهو من اتباعه ومن دعا إلى غير ذلك فليس على سبيله ولا هو على بصيرة ولا هو من اتباعه).

قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)

قوله (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (109)

قوله (حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (110)

هناك فارق بين اليأس والاستيئاس، فاليأس مذموم، والاستيئاس أخر مراحل الجهاد والصبر، فهو نتيجة لها، ولذلك فهو محمود حيث لا يصل إلى هذه المرحلة إلا الرسل ومن سار على نهجهم، حيث يظل أملهم في النصر معقود في الله، ولا يتطرق اليأس إلي قلوبهم أبدا، لكنهم يلتمسون أسباب هذا النصر كما أمرهم الله، فلكما التمسوا سببا وجدوا أن الحلقة تضيق وتضيق، ووجدوا أن الاسباب تضعف بل تكاد تنعدم، حتى إذا انعدمت الأسباب لم يبق غير الله تعالى خالق الأسباب، هنا يتطرق إليهم الاستيئاس من فاعلية هذه الأسباب وقد ضعفت أو عدمت فاعليتها، لكن أملهم أن يأتي الله بمعجزة يتحقق بها النصر بدون أسباب، قال الشعراوي: (هناك فرق بين « يأس » و « استيأس »، فـ « يأس » تعني قطع الأمل من شيء، و « استيأس » تعني: أنه يُلِحّ على قَطع الأمل، أي: أن الأمل لم ينقطع بعد. ومَنْ قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إنْ كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مُسبِّبه الأعلى لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب، ثم انتهت الأسباب، ولم تَصِلْ به إلى نتيجة، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول: أنا لا تُهمّني الأسباب؛ لأن معي المُسبِّب، يقول سبحانه (وظنوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا...) [يوسف: 110] وهكذا يأتي النصر بعد الزلزلة الشديدة؛، ولنا أن نتخيل شَوْق العطشان لكوب الماء،وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطي غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون في الغرور، وحين يأتي النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول، وأيضاً يتضاعف غَمُّ الكافرين به )[[237]](#footnote-237).

ويقول صاحب الظلال (تلك سنة الله في الدعوات، لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير، ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً، فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً أو تكلفه القليل)[[238]](#footnote-238)

قوله (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (111)

وقد استشهد القرآن على هذا المعنى بقصة يعقوب عليه السلام، والذي ظل مستبشرا بالرؤيا التي فسرها، ولم ينقطع أمله في الله أن يعيد له يوسف عليه السلام، وظل على هذا الحال إلى ما يربو أربعين عاما، وظل يذكر للناس من حوله يوسف حتى قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا، ولكنه لم ينقطع عن ذلك بل ازداد صبرا حتى لم يجد غير الصبر والتماس أضعف الأسباب لعل الله يقويها (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله)، وهكذا ظل على هذا الحال يتشمم ريح يوسف حتى جاءه البشير وارتد إليه بصره (إني أعلم من الله ما لا تعلمون)

**المحتويات**

[**مقدمة 1**](#_Toc89771441)

[**علاقة يوسف بأبيه وأخوته 4**](#_Toc89771442)

[**تفسير يعقوب لرؤية يوسف في المنام 4**](#_Toc89771443)

[**مؤامرة أخوة يوسف عليه 10**](#_Toc89771444)

[**فرج الله بعد الشدة 19**](#_Toc89771445)

[**يوسف وفتنة النساء 23**](#_Toc89771446)

[**يوسف في السجن 36**](#_Toc89771447)

[**يوسف يعَبِّر رؤيا العزيز 46**](#_Toc89771448)

[**من المحنة بالسجن إلى المنحة بالتمكين 54**](#_Toc89771449)

[**التقاء يوسف بأخوته وعفوه عنهم وسجودهم له، وارتقاء أبويه على العرش 61**](#_Toc89771450)

[**رحلة أخوة يوسف لمصر وعودتهم لأبيهم 62**](#_Toc89771451)

[**حيلة يوسف لأخذ أخيه الأصغر وفجعة يعقوب عليه 71**](#_Toc89771452)

[**مفاجأة أبناء يعقوب بأخيهم يوسف وارتدادهم إلى أبيهم بتلك البشرى 88**](#_Toc89771453)

[**اجتماع شمل الأسرة وتحقق نبوءة يوسف 96**](#_Toc89771454)

[**خاتمة سورة يوسف 104**](#_Toc89771455)

1. ) د.صالح الشمراني : تدبر سورة يوسف ، طريق الإسلام ، ركن الأخوات

   https://akhawat.islamway.net/forum/topic/360384 [↑](#footnote-ref-1)
2. ) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 721 [↑](#footnote-ref-2)
3. ) النكت والعيون ج2 ص 241 ، تفسيير السمعاني ج3 ص 6 [↑](#footnote-ref-3)
4. ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 133 رقم 364 [↑](#footnote-ref-4)
5. ) رواه ابن خزيمة في صحيحه ج2 ص 48 رقم 887 والحاكم في المستدرك والنسائي وأبو يعلى في مسنده وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 311 رقم 312

   ن جابر قال: دخلت على النبي والحسن والحسين على ظهره وهو يقول: نعم الجمل جملكما! ونعم العدلانأنتما.

   كنز العمال في سنن الأقوال ج13 ص 663 رقم 37689 [↑](#footnote-ref-5)
6. ) رواه مسلم ج11 ص 455 رقم 4282 [↑](#footnote-ref-6)
7. ) رواه البخاري ج1 ص 238 رقم 135 [↑](#footnote-ref-7)
8. ) رواه الحاكم ج2 ص 368 رقم 3613 [↑](#footnote-ref-8)
9. ) رواه البخاري ج21 ص 333 رقم 6469 [↑](#footnote-ref-9)
10. ) تفسير ابن أبي زمنين ج1 ص 301 [↑](#footnote-ref-10)
11. ) رواه أحمد في مسنده ج32 ص 409 رقم 15594 [↑](#footnote-ref-11)
12. ) رواه أبو داود ج13 ص 208 رقم 4366 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 342 رقم 3162 ، صحيح وضعيف سنن أبي داود ج11 ص 20 ، السلسلة الصحيحة ج1 ص 237 الجامع الصغير ج1 ص 585 [↑](#footnote-ref-12)
13. ) رواه الترمذي ج9 ص 296 رقم 2606 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1ص43 رقم 182 صحيح وضعيف سنن الترمذي ج6 ص 182 رقم 2682 [↑](#footnote-ref-13)
14. ) رواه البخاري ج3 ص 414 رقم 844 [↑](#footnote-ref-14)
15. ) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج3 ص 55 رقم 2455 ، وصححه الألباني من رواية سهل بن عبد الرحمن الجرجاني عن محمد بن مطرف عن محمد بن المنكدر عن عروة بن الزبير عن أبي هريرة مرفوعا.وقال : فالحديث بهذا الإسناد جيد عندي انظر: السلسلة الصحيحة (3/439( [↑](#footnote-ref-15)
16. ) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 295 [↑](#footnote-ref-16)
17. ) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخيار للكلاباذي ج1 ص 113 رقم 72 [↑](#footnote-ref-17)
18. ) فيض القدير ج1 ص 630 [↑](#footnote-ref-18)
19. ) رواه البخاري ج19 ص 21 رقم 5612 [↑](#footnote-ref-19)
20. ) رواه مسلم ج14 ص 69 رقم 5145 [↑](#footnote-ref-20)
21. ) رواه مسلم ج18 ص 112 رقم 7281 [↑](#footnote-ref-21)
22. ) رواه مسلم ج11 ص 353 رقم 4200 [↑](#footnote-ref-22)
23. ) رواه الترمذي ج11 ص 401 رقم 3419 [↑](#footnote-ref-23)
24. ) رواه البخاري ج15 ص 314 رقم 4572 [↑](#footnote-ref-24)
25. ) النكت والعيون ج2 ص 241 مع بعض التصرف [↑](#footnote-ref-25)
26. ) رواه الترمذي [↑](#footnote-ref-26)
27. ) عون المعبود ج6 ص 121 [↑](#footnote-ref-27)
28. ) رواه البخاري ج9 ص 40 رقم 2398 [↑](#footnote-ref-28)
29. ) جمع الجوامي للسيوطي ج1 ص 14289 أخرجه ابن عدى (6/407 ترجمة 1890 معاوية بن هشام القصار) ، وأبو نعيم فى الحلية (7/90) ، والخطيب (9/244) ، والقضاعى (2/140 ، رقم 1059) ، وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 323 رقم 1249 - ابن عدى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والخطيب عن جابر [↑](#footnote-ref-29)
30. ) رواه البخاري ج8 ص 323 رقم 2269 [↑](#footnote-ref-30)
31. ) المستدرك على الصحيحين ج2 ص 475 رقم 3638 وأحمد في مسنده وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص230 رقم 3608 [↑](#footnote-ref-31)
32. ) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 305 [↑](#footnote-ref-32)
33. ) تفسير ابن كثير ج4 ص 374 [↑](#footnote-ref-33)
34. ) الدر المنثور ج5 ص 393 [↑](#footnote-ref-34)
35. ) تفسير الثعلبي ج1 ص 1152 تفسير القرطبي ج9 ص 144 [↑](#footnote-ref-35)
36. ) تفسير القاسمي : محاسن التأويل [↑](#footnote-ref-36)
37. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 4378 [↑](#footnote-ref-37)
38. ) تفسير القشيري ج3 ص 406 [↑](#footnote-ref-38)
39. ) رواه البخاري ج22 ص 93 رقم 6635 [↑](#footnote-ref-39)
40. ) الغزالي : الوسيط ج7 ص 326 ابن رشد : بداية المجتهد ج2 ص 470 ابن القيم : الطرق الحكمية ج1 ص 265 [↑](#footnote-ref-40)
41. ) (راجع فتح الباري 139:13و141) [↑](#footnote-ref-41)
42. ) في ظلال القرآن ج4 ص 296 [↑](#footnote-ref-42)
43. ) البحر المديد ج3 ص 96 [↑](#footnote-ref-43)
44. ) المناوي فيض القدير ج6 ص 90 [↑](#footnote-ref-44)
45. ) رواه ابن حبان في صحيحه ج7 ص 210 رقم 2948 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج3 ص 482 رقم 1408 [↑](#footnote-ref-45)
46. ) رواه مسلم ج13 ص 142 رقم 4816 [↑](#footnote-ref-46)
47. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 4465 [↑](#footnote-ref-47)
48. ) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 214 [↑](#footnote-ref-48)
49. ) تفسير ابن كثير ج4 ص 376 [↑](#footnote-ref-49)
50. ) التحرير والتنوير ج12 ص 41 [↑](#footnote-ref-50)
51. ) الدر المنثور ج5 ص 388 [↑](#footnote-ref-51)
52. ) رواه مسلم ج13 ص 60 رقم 4754 [↑](#footnote-ref-52)
53. ) رواه البخاري ج15 ص 218 رقم 4537 [↑](#footnote-ref-53)
54. ) رواه مسلم ج13 ص 86 رقم 4772 [↑](#footnote-ref-54)
55. ) نظم الدرر للبقاعي ج4 ص 24 [↑](#footnote-ref-55)
56. ) لسان العرب ج11 ص 32 [↑](#footnote-ref-56)
57. ) لسان العرب ج11 ص 32 [↑](#footnote-ref-57)
58. ) رواه البخاري ج20ص 158 رقم 6021 [↑](#footnote-ref-58)
59. ) تفسير مجاهد ج2 ص 282 [↑](#footnote-ref-59)
60. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 5909 [↑](#footnote-ref-60)
61. ) رواه الحاكم في المستدرك ج1 ص 197 رقم 387 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 792 رقم 430 [↑](#footnote-ref-61)
62. ) التحرير والتنوير ج12 ص 45 [↑](#footnote-ref-62)
63. ) رواه البخاري ج13 ص 394 رقم 4117 [↑](#footnote-ref-63)
64. ) رواه البخاري ج20 ص 140 رقم 6010 [↑](#footnote-ref-64)
65. ) عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج33 ص 268 [↑](#footnote-ref-65)
66. ) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674 [↑](#footnote-ref-66)
67. ) البحر المحيط ج7 ص 11 [↑](#footnote-ref-67)
68. ) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 731 [↑](#footnote-ref-68)
69. ) كأنه تذكرها في عقله [↑](#footnote-ref-69)
70. ) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 349 رقم 7875 [↑](#footnote-ref-70)
71. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 4390 مع بعض التصرف [↑](#footnote-ref-71)
72. ) اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 246 [↑](#footnote-ref-72)
73. ) رواه البخاري ج9 ص 362 رقم 2587 [↑](#footnote-ref-73)
74. ) رواه أحمد ج44 ص 75 رقم 20608 [↑](#footnote-ref-74)
75. ) رواه البخاري ج16 ص 240 [↑](#footnote-ref-75)
76. ) أضواء البيان في إيضاح القرآن ج2 ص 216 [↑](#footnote-ref-76)
77. ) رواه البخاري ج11 ص 111 رقم 3083 [↑](#footnote-ref-77)
78. ) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 612 [↑](#footnote-ref-78)
79. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 4395 [↑](#footnote-ref-79)
80. ) تفسير القاسمي : محاسن التأويل [↑](#footnote-ref-80)
81. ) رواه البخاري ج13 ص 44 رقم 3826 [↑](#footnote-ref-81)
82. ) رواه مسلم ج13 ص 286 رقم 4925 [↑](#footnote-ref-82)
83. ) رواه البخاري ج16 ص 41 رقم 4706 [↑](#footnote-ref-83)
84. ) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 483 [↑](#footnote-ref-84)
85. ) رواه الحاكم في المستدرك ج2ص622رقم 4282 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 55 رقم 1481 [↑](#footnote-ref-85)
86. ) رواه الترمذي ج11 ص 475 رقم 3486 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 180 رقم 2822 [↑](#footnote-ref-86)
87. ) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 448 رقم 8231 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1ص142 رقم 143 [↑](#footnote-ref-87)
88. ) رواه أحمد ج45 ص 10 رقم 27079 [↑](#footnote-ref-88)
89. ) رواه البخاري ج11 ص 288 رقم 3210 [↑](#footnote-ref-89)
90. ) رواه البخاري ج12 ص 22 رقم 3413 [↑](#footnote-ref-90)
91. ) شرح النووي على مسلم ج15 ص 166 [↑](#footnote-ref-91)
92. ) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج2 ص 378 [↑](#footnote-ref-92)
93. ) أبو السعادات الجزري : النهاية في غريب الأثر ج1 ص 907 [↑](#footnote-ref-93)
94. ) فيض الصاعدي : الأحاديث الواردة في الصحيحين في الجن والشياطين ج1 ص 60 [↑](#footnote-ref-94)
95. ) محاسن التأويل تفسير القاسمي [↑](#footnote-ref-95)
96. ) رواه البخاري ج21 ص 429 رقم 6522 [↑](#footnote-ref-96)
97. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 4406 [↑](#footnote-ref-97)
98. ) في ظلال القرآن ج4 ص 307 [↑](#footnote-ref-98)
99. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 1577 [↑](#footnote-ref-99)
100. ) التبيان تفسير غريب القرآن ج1 ص 245 [↑](#footnote-ref-100)
101. ) التحرير والتنوير ج12 ص 65 [↑](#footnote-ref-101)
102. ) تفسير ابن كثير ج7 ص 458 سورة النجم [↑](#footnote-ref-102)
103. ) أدب مترجم ، نيتشه [↑](#footnote-ref-103)
104. ) في ظلال القرآن ج4 ص 331 [↑](#footnote-ref-104)
105. ) رواه مسلم ج9 ص 404 رقم 3448 [↑](#footnote-ref-105)
106. ) رواه أحمد ج34 ص 253 رقم 20656 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 178 رقم 179 الجامع الصغير 1/178 رقم 13477 [↑](#footnote-ref-106)
107. ) رواه الترمذي ج6 ص 499 رقم 1809 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج4 ص 207 [↑](#footnote-ref-107)
108. ) رواه البخاري ج22 ص 53 رقم 6612 [↑](#footnote-ref-108)
109. ) رواه البخاري ج14 ص 447 رقم 4402 [↑](#footnote-ref-109)
110. ) علي بن نايف الشحود : موسوعة الرد على المذاهب الفكرية الماصرة ج38 رقم 137 [↑](#footnote-ref-110)
111. ) تفسير السعدي (4/77). [↑](#footnote-ref-111)
112. ) رواه ابن ماجة ج11 ص 393 رقم 3904 وصحه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 342 رقم 3162 [↑](#footnote-ref-112)
113. ) رواه مسلم ج9 ص 152 رقم 3262 [↑](#footnote-ref-113)
114. ) أ. د. عبدالله بن محمد الطيار : ضوابط تعبير الرؤيا ص 29 [↑](#footnote-ref-114)
115. ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج11 ص 249 رقم 11666 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 444 رقم 1945 [↑](#footnote-ref-115)
116. ) مجموع الفتاوى ج15 ص 115 [↑](#footnote-ref-116)
117. ) تفسير ابن كثير ج4 ص 391 [↑](#footnote-ref-117)
118. ) مجموع الفتاوى ج15 ص 115 [↑](#footnote-ref-118)
119. ) رواه الترمذي ج8 ص 243 رقم 2206 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 280 [↑](#footnote-ref-119)
120. ) تفسير السعدي ج1 ص 399 [↑](#footnote-ref-120)
121. ) اللباب في علوم الكتاب ج9 ص 281 [↑](#footnote-ref-121)
122. ) التحرير والتنوير ج12 ص 68 [↑](#footnote-ref-122)
123. ) صيد الخاطر ص: 81، طبعة الغزالي. [↑](#footnote-ref-123)
124. ) البيان والتبيين ج 1 ص: 398. [↑](#footnote-ref-124)
125. ) إعلام الموقعين ج2 ص 186 [↑](#footnote-ref-125)
126. ) رواه مسلم ج8 ص 180 رقم 2904 [↑](#footnote-ref-126)
127. ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج11 ص 249 رقم 11666 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 444 رقم 1945 [↑](#footnote-ref-127)
128. ) رواه البخاري ج21 ص 347 رقم 6377 [↑](#footnote-ref-128)
129. ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج11 ص 249 رقم 11666 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 444 رقم 1945 [↑](#footnote-ref-129)
130. ) البحر المحيط ج7 ص 40 الزمخشري : الكشاف ج3 ص180 [↑](#footnote-ref-130)
131. ) رواه البخاري ج2 ص 351 رقم 495 [↑](#footnote-ref-131)
132. ) رواه الترمذي ج11 ص 425 رقم 3441 ضعفه الألباني مرفوعا : مشكاة المصابيح ج1 ص 63 رقم 296 [↑](#footnote-ref-132)
133. ) رواه البخاري ج20 ص 440 رقم 6227 [↑](#footnote-ref-133)
134. ) رواه مسلم ج9 ص 344 رقم 3402 [↑](#footnote-ref-134)
135. ) المستدرك على مجموع الفتاوى ج5 ص 155 [↑](#footnote-ref-135)
136. ) مجموع التاوى ج20 ص 57 [↑](#footnote-ref-136)
137. ) التحرير والتنوير ج12 ص 83 [↑](#footnote-ref-137)
138. ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج19 ص 233 رقم 16189 وصححه الألباني :السلسلة الصحيحة ج4 ص 389 رقم 1890 [↑](#footnote-ref-138)
139. ) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج1 ص 250 رقم 724 ، وصححه الألباني :السلسلة الصحيحة ج4 ص 389 رقم 1890 [↑](#footnote-ref-139)
140. ) أيسر التفاسير ج2 ص 217 [↑](#footnote-ref-140)
141. ) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ج35 ص 171 [↑](#footnote-ref-141)
142. ) التحرير والتنوير ج12 ص 84 [↑](#footnote-ref-142)
143. ) رواه أبو داود ج8 ص 177 رقم 2559 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج6 ص 448 [↑](#footnote-ref-143)
144. ) قال الألباني صحيح لغيره / رواه أحمد بإسناد جيد والطبراني وغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 260 رقم 2209 [↑](#footnote-ref-144)
145. ) تفسير الرازي ج9 ص 69 [↑](#footnote-ref-145)
146. ) الوسيط ج1 ص 2325 [↑](#footnote-ref-146)
147. ) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 394 [↑](#footnote-ref-147)
148. ) تفسير ابن كثير ج4 ص 398 [↑](#footnote-ref-148)
149. ) تفسير الثعلبي ج1 ص 1181 [↑](#footnote-ref-149)
150. ) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 741 [↑](#footnote-ref-150)
151. ) تفسير الثعالبي ج2 ص 267 [↑](#footnote-ref-151)
152. ) البحر المحيط ج7 ص 47 [↑](#footnote-ref-152)
153. ) رواه مسلم ج9 ص 347 رقم 3404 [↑](#footnote-ref-153)
154. ) رواه الحاكم في المستدرك ج3 ص 624 رقم 6304 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1392 رقم 13917 [↑](#footnote-ref-154)
155. ) رواه ابن ماجة ج8 ص 343 رقم 3815 وصححه الألباني ج2 ص 133 رقم 2278 [↑](#footnote-ref-155)
156. ) فيض القدير ج1 ص 641 [↑](#footnote-ref-156)
157. ) رواه الحاكم ج2 ص 107 رقم 2478 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 179 رقم 1605 [↑](#footnote-ref-157)
158. ) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 401 [↑](#footnote-ref-158)
159. ) تفسير ابن أبي حاتم ج8 ص 402 [↑](#footnote-ref-159)
160. ) ولي الدين التبريزي مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح ج8 ص 883 [↑](#footnote-ref-160)
161. ) رواه الترمذي ج9 ص 57 رقم 2441 وحسنه الألباني صحيح وضعيف الترمذي ج6 ص17 رقم2517 [↑](#footnote-ref-161)
162. ) فتح الباري ج10 ص 212 [↑](#footnote-ref-162)
163. ) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج8 ص 116 [↑](#footnote-ref-163)
164. ) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 83 رقم 9560 [↑](#footnote-ref-164)
165. ) البحر المحيط ج7 ص 51 [↑](#footnote-ref-165)
166. ) رواه مسلم ج11 ص 175 رقم 4058 [↑](#footnote-ref-166)
167. ) رواه البخاري ج18 ص 20 رقم 5299 [↑](#footnote-ref-167)
168. ) رواه الشهاب في مسنده ج2 ص 140 رقم 1057 ، رواه أبو نعيم وابن عدى.وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3ص323 رقم 1249 وقال قال في " الجامع " : " رواه ابن عدي و أبو نعيم في " الحلية " عن جابر و ابن عدي عن أبي ذر " . [↑](#footnote-ref-168)
169. ) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 52 رقم 112 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص 52 [↑](#footnote-ref-169)
170. ) رواه مسلم ج13 ص 67 رقم 4759 [↑](#footnote-ref-170)
171. ) اين عاشور : التحرير والتنوير ج12 ص 95 [↑](#footnote-ref-171)
172. ) في هذا المعنى أبو حيان : البحر المحيط ج7 ص 57 [↑](#footnote-ref-172)
173. ) التحرير والتنوير ج12 ص 99 [↑](#footnote-ref-173)
174. ) البحر المحيط ج7 ص 60 [↑](#footnote-ref-174)
175. ) مفاتيح الغيب ج18 ص 153 [↑](#footnote-ref-175)
176. ) رواه الترمذي ج8 ص 27 رقم 2065 السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 153 رقم 154 [↑](#footnote-ref-176)
177. ) رواه الترمذي ج11 ص 383 رقم 3401 وصححه الألباني : صحيح الترمذي ج3 ص 2766 [↑](#footnote-ref-177)
178. ) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج7 ص 117 رقم 9691 [↑](#footnote-ref-178)
179. ) محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي : تسلية أهل المصائب ج1 ص 212 [↑](#footnote-ref-179)
180. ) رواه أبو داود ج8 ص 394 رقم 2719 [↑](#footnote-ref-180)
181. ) رواه البخاري ج5 ص 57 رقم 1220 [↑](#footnote-ref-181)
182. ) يقصد بالمياه البيضاء على العينين : العتامة التي تصيب عدسة العين؛ حيث تكون الرؤية غائمة تشبه - إلى حد ما - النظر في نافذة متجمدة أو مشوشة، فعندما يتكون الماء الأبيض تبدأ العدسة في فقد شفافيتها تدرجيًّا إلى أن تصبح معتمة؛ مما يمنع مرور الضوء من خلالها، ومن ثم تصبح الرؤية غير واضحة مثل: صعوبة القراءة وغيرها، وقد تصيب الإنسان في أي مرحلة عمرية، وتحدث في أي من العينين أو كلتيهما.

     ومع تقدم العمر تصبح العدسة أقل مرونة وأقل شفافية وأسمك، بالإضافة إلى الحالات المرتبطة بالعمر والظروف الطبية الأخرى التي تسبب تحلل الأنسجة داخل العدسة وظهور العتامة داخل العدسة .

     المصدر : موقع وزارة الصحة المصرية ، <https://www.moh.gov.sa/HealthAwareness/EducationalContent/Diseases/Eyes/Pages/003.aspx>

      إن الأسباب التي تؤدي إلى فقدان الشفافية في أنسجة العدسة القشرية والنووية

     هي أكسدة لبيدات الغشاء أو البروتينات الهيكلية أو الأنزيمية أو الحمض النووي DNA بواسطة بروكسيداز . يتم تصنيف إعتام عدسة العين إلى أربعة أنواع رئيسية وفقا لمظهرها كما يظهرها المصباح الشِقي : 1.السَّادُّ النووي :هذه تنطوي على التعتيم أو تغير اللون في مركز العدسة المؤثرة على الرؤية

     2.الساد القشريّ : هذا النوع يتطور في قشرة العدسة وخلق الشقوق التي تبدو كتشعبات الحافة الخارجية للعدسة نحو المركز . 3.الساد الخلفي تحت المحفظة : و تبدأ  كمنطقة معتمة صغيرة في الجزء الخلفي من العدسة وهو أكثر شيوعا في المرضى الصغار.

     المدونة الطبية ، [↑](#footnote-ref-182)
183. ) هناك علاقة بين الحزن وبين الإصابة بالمياه البيضاء حيث أن الحزن يسبب زيادة هرمون "الأدرينالين" وهو يعتبر مضاد لهرمون "الأنسولين" وبالتالي فإن الحزن الشديد أوالفرح الشديد يسبب زيادة مستمرة في هرمون الأدرينالين الذي يسبب بدوره زيادة سكر الدم, وهو أحد مسببات العتامة, هذا بالإضافة إلى تزامن الحزن مع البكاء .

     <https://al-sharq.com/article/12/04/2015/> في رحاب آية علاج المياه البيضاء على العين [↑](#footnote-ref-183)
184. ) رواه البخاري ج5 ص 59 رقم 1221 [↑](#footnote-ref-184)
185. ) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ج6 ص 223 ، شرح رياض الصالحين لابن عثيمين ج1 ص 1050 [↑](#footnote-ref-185)
186. ) ملخص ما ذكره في مجموع الفتاوى ج10 ص 17 [↑](#footnote-ref-186)
187. ) : علي الطاهر عبد السلام / الإعجاز البلاغي في قصة يوسف ج1 ص 88 [↑](#footnote-ref-187)
188. ) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج12 ص 589 رقم 35832 [↑](#footnote-ref-188)
189. ) رواه أحمد ج8 ص 63 رقم 3528 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج1 ص 383 رقم 199 [↑](#footnote-ref-189)
190. ) زاد المعاد ج2 ص 359 [↑](#footnote-ref-190)
191. ) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 227 [↑](#footnote-ref-191)
192. ) رواه البخاري ج19 ص 416 رقم 5865 [↑](#footnote-ref-192)
193. ) تفسير ابن كثير ج4 ص 406 [↑](#footnote-ref-193)
194. ) التحرير والتنوير ج12 ص 110 [↑](#footnote-ref-194)
195. ) أشرف إسماعيل المحامي : قراءة في الفكر الاقتصادي لنبي الله يوسف عليه السلام – نقابة المحامين – مجلة المحاماة – العدد الأول لعام 2021 https://egyls.com/% [↑](#footnote-ref-195)
196. ) رواه مسلم ج5 ص 322 رقم 1784 [↑](#footnote-ref-196)
197. ) سليمان بن محمد اللهيميد : إيقاظ الأفهام في شرح عمدة الأحكام ج2 ص 16 [↑](#footnote-ref-197)
198. ) تفسير الخازن ج3 ص 312 [↑](#footnote-ref-198)
199. ) رواه البخاري ج7 ص 240 رقم 1934 [↑](#footnote-ref-199)
200. ) التحرير والتنوير ج12 ص 113 [↑](#footnote-ref-200)
201. ) رواه ابن ماجة ج12 ص 38 رقم 4021 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 373 رقم 3256 [↑](#footnote-ref-201)
202. ) الدر المنثور ج5 ص 446 [↑](#footnote-ref-202)
203. ) نايف الشحود : موسوعة فقه الابتلاء ج3 ص 158 وقد أشار إلى هذا المعنى ابن تيمية في دقائق التفسير [↑](#footnote-ref-203)
204. ) ذكر ابن تيمية في دقائق التفسير ج2 ص 300 ما ملخصه

     والناس في قضية التقوى بطاعة الأمر الديني ، والصبر على القدر الكوني أربعة أقسام

     أحدها أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة

     والثاني الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرض أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه

     والثالث قوم له نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام ... وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى إذا قدر

     وأما القسم الرابع فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا بل هم كما قال الله تعالى إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك وحابوك واسترحموك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلبا وأقلهم رحمة وإحسانا وعفوا

     وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعا في غير موضع من كتابه وبين أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فوركم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وقال الله تعالى لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ، وقال إخوة يوسف له أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [↑](#footnote-ref-204)
205. ) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج2 ص 396 [↑](#footnote-ref-205)
206. ) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ج2 ص 396 [↑](#footnote-ref-206)
207. ) رواه أبو داودج12 ص 397 والترمذي ، وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1147 رقم 11468 [↑](#footnote-ref-207)
208. ) رواه مسلم ج8 ص 21 رقم 6757 [↑](#footnote-ref-208)
209. ) البحر المحيط ج7 ص 72 [↑](#footnote-ref-209)
210. ) رواه مسلم ج9 ص 152 رقم 3262 [↑](#footnote-ref-210)
211. ) البحر المحيط ج7 ص 72 [↑](#footnote-ref-211)
212. ) رواه الدارمي في سننه ج2 ص 525 رقم 3323 وقال إسناده صحيح إلى عبد الله [↑](#footnote-ref-212)
213. ) رواه مسلم ج9 ص 152 رقم 3262 [↑](#footnote-ref-213)
214. ) فيض القدير ج6 ص 597 [↑](#footnote-ref-214)
215. ) رواه ابن ماجة ج11 ص 370 رقم 3886 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 338 رقم 3144 [↑](#footnote-ref-215)
216. ) رواه البخاري ج8 ص 323 رقم 2269 [↑](#footnote-ref-216)
217. ) رواه ابن ماجة ج11 ص 323 رقم 3852 وحسنه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 331 رقم 3115 [↑](#footnote-ref-217)
218. ) رواه أحمد ج35 ص 520 رقم 21666 وصححه الألباني : ظلال الجنة ج1 ص 205 رقم 426 صحيح بشواهده [↑](#footnote-ref-218)
219. ) الشيخ عبد العزيز الراجحي : أجوبة مفيدة ج1 ص 67 [↑](#footnote-ref-219)
220. ) د عبد العزيز محمد بن علي عبد اللطيف : نواقض الإيمان القولية والعملية ج2 ص 21

     وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي هيئة كان - فإنما كان تحية لا عباد [↑](#footnote-ref-220)
221. ) رواه ابن ماجة ج5 ص 449 رقم 1843 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج3 ص 277 رقم 1203 [↑](#footnote-ref-221)
222. ) رواه الترمذي ج9 ص 373 رقم 2652 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 159 رقم 160 [↑](#footnote-ref-222)
223. ) رواه الحاكم في المستدرك ج4 ص 438 رقم 8198 قال الذهبي في التلخيص على شرط البخاري ومسلم [↑](#footnote-ref-223)
224. ) رواه البخاري ج11 ص 81 رقم 3057 [↑](#footnote-ref-224)
225. ) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك : للسيوطي ج1 ص 243 [↑](#footnote-ref-225)
226. ) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ج18 ص 144 [↑](#footnote-ref-226)
227. ) محمد الأزدي الحميدي : تفسير غريب ما في الصحيحين ج1 ص 136 [↑](#footnote-ref-227)
228. ) رواه مسلم ج1 ص 174 رقم 76 [↑](#footnote-ref-228)
229. ) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد ج18 ص 143 [↑](#footnote-ref-229)
230. رواه الترمذي ج7 ص 183 رقم 1860 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 182 رقم 1608 [↑](#footnote-ref-230)
231. ) رواه البخاري ج14 ص 183 رقم 4274 [↑](#footnote-ref-231)
232. ) أسماء الله الحسنى ج32 ص 56 [↑](#footnote-ref-232)
233. ) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ج1 ص 206 رقم 661 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج4 ص 50 رقم 1476 [↑](#footnote-ref-233)
234. ) رواه الترمذي ج11 ص 27 رقم 3157 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 6 رقم 59 [↑](#footnote-ref-234)
235. ) رواه أحمد في مسنده ج17 ص 295 رقم 8253 [↑](#footnote-ref-235)
236. ) تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ج4 ص 214 [↑](#footnote-ref-236)
237. ) تفسير الشعراوي ج1 ص 4509 [↑](#footnote-ref-237)
238. ) في ظلال القرآن ج4 ص 349 [↑](#footnote-ref-238)